حسن إمامي

السفر الحلم رحلة إلى

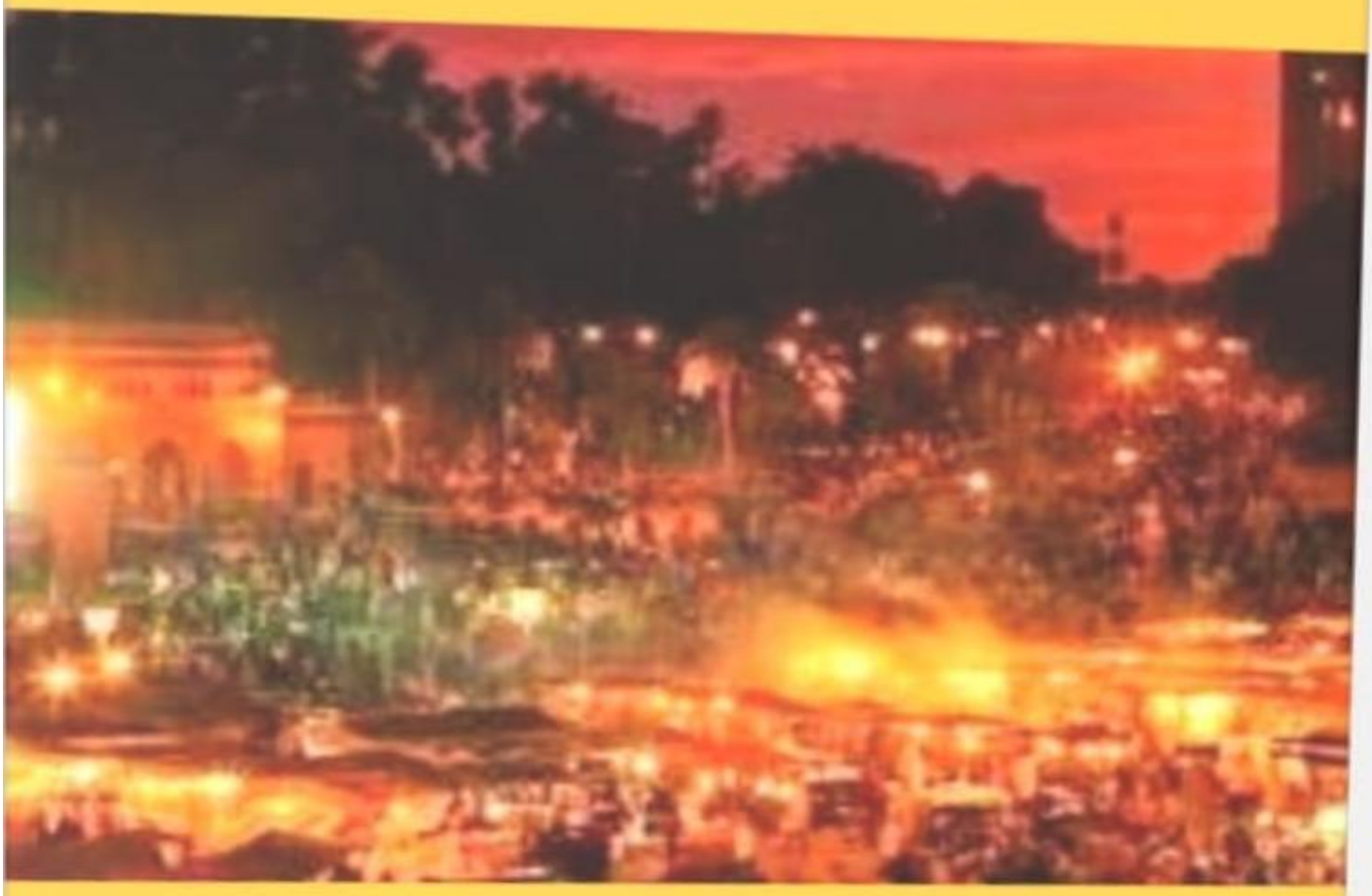

رواية

2026

حسن إمامي

السفر الحلم

رواية

(بين الحكي المسموع والتجربة في الواقع وحلم المسافر

يتشكل هذا السرد رحلة في الحياة وفي الخيال)

انحبست أنفاس حميد ثواني معدودة. أخذ بعدها نفسا عميقا متحسرا وعيناه جاحظتان بدون رمش. لم يجد معها فهما داخل ذهنه وأمامهما، تفسيرا لما سمع وما آل إليه حواره مع أبيها. لم يستطع فهم رفضه له كمتقدم لابنته ليخطبها ويتزوجها. هذا الرفض المطلق لهذه العلاقة لا يعكس الود وعلاقة الحب والخرجات العاطفية والآهات التي غمرت أنفاسهما في لحظات من العشق والقبل والعناق.

كم شاهدا من الأفلام الرومانسية، وتابعا القصص الغرامية. كان حبهما يشفع لكل قصة بإمكانية معالجة تعثرات الحب، ومنسكبات الدمع، لمحاولات العلاج، واللقاء بعد فراق، سواء داخل الشريط والمسلسل أو خارجهما.

لكنه الآن، ومعه حبيبته أمام امتحانهما الخاص، وتجربتهما الخاصة. يشاركهما قرار أبيها. هناك سلطة دون الحب، ودون العواطف، ودون رغبات العاشقين. اجترح، وانقبض. ترك المجلس بعد تحية سلام المغادرة، وخرج إلى المقهى رافضا الذهاب مباشرة إلى البيت. تناول سيجارة وجرعات من قهوة سوداء لم يحليها إلا بطوب واحد من السكر، حرّكه بضغط داخل الكأس وهو الذي يحركه بدوران الملعقة بعد ثوان من تحلل الطوب كالمعتاد. ربما أصبح هذا السكر خليطا يجمع بين انتظار قلبيهما ومرارة جواب أبيها. صدرت عنه ابتسامة ساخرة من وضعه ومن كوب قهوته. سيتجرع مرارته اللذيذة الآن.

لم يعد للمكان وِدٌّ وَلا أُنس، ولم تعد للنفس رغبة ولا عشق. تحولت جماليات حميد في معانقة الحياة إلى مظاهر عبوس وقلق، وهو يعلم في قرارة نفسه أن ما رغب فيه واستعد له لمدة، قد تبخر برفض جاهل ومجهول السبب. لم ييأس من ضغوط الحياة التي يتّمته في صباه، ولا من تعلّمِه الذي تعثر فيه فاضطره للخروج ولمواجهة قهر الوجود والعيش داخل مجتمع لا يرحم الضعيف. هو الذي تعلّم كم من حرفة، وأبدع في العزف على آلات حتى أصبح فنان حيّه

ومدينته ومطربه الذي ينشد فيمتع. وما يزال يكافح لكسب التحدي والرهان. يقاوم من أجل الاستقرار في الكسب الحلال والعيش في توازن بيت زوجيته المرغوب. لكن، لا أحد أنقذه في هذه اللحظة. أليس الزواج نصف الدين. كم سمع العبارة: كَمِّلْ دينك!

لقد أصبح الآن في مسافة تبعِده عن السنة وعن نصف الدين. ما العمل؟ يمكنني الابتعاد عن هذا الجو المشحون الآن. أحتاج إلى تنفس هواء جديد. هكذا فكّر، وهكذا دبّر. ربما لم تحضره العبارتان بشكل صريح. لكنه كان عمليا في تحقيقهما:

(كم من النقود هي متوفرة لدي؟ هل الحقيبة مناسبة للسفر؟ والحذاء؟ ...؟)

فجأة، أصبحت هذه الأسئلة مفاتيح أنسه الجديد. نهض من كرسيه وألقى التحية على المعارف داخل المقهى وخارجها في عودته إلى البيت.

لم تكن الأم على علم بقرار حميد في السفر وهو الذي اشترى بعض الفواكه والخضر واللحوم الشهية في صباح هذا اليوم من السوق المركزي، لكي يتلذذ بطبخ وعرض أمه لها خلال ما تبقى من أيام هذا الأسبوع الذي أراده سعيد النهاية ما دام قد خطط لملاقاة ذلك الذي أصبح لعينا وعدوا غير مرتقب.

فاجأ أمه بالسؤال عن ثيابه التي وضعها للغسيل:

ـ هل جفت الثياب وأنزلت من فوق السطح؟

ـ ما الخطب؟ تساءلت الأم.

كان القرار واضحا في حدة صوته وصمته بعد كل جواب أو كلام. لم تسأل الأم بعد ذلك عن أي سبب، إنما سؤالها عن وجهة السفر، ما دام السؤال عن الحقيبة قد بيّن لها عزمه على السفر. سؤالٌ لم يكن حميد قد حدد لنفسه جوابا عنه، فكيف سيجيب أمه عنه؟ ارتجل تسمية مدينة ما، لعلها مشهورة وقبلة للسياح من كل قطب. اختارها لسانه، ولم يكن عقله أو قلبه من اختارها.

رغبته الملحة الآن هي أن يكون خارج مدينته. لكن ضرورات عدة أرغمته على الصبر حتى الصباح الباكر. لعل أهمها وقت خروج القطار. لكن، ما هي

الوجهة؟ الشمال أو الجنوب؟ وهو الذي يسكن في وسط البلاد. لا يهم أي اتجاه. أي اتجاه كان مناسبا في توقيته سيكون قبلة حميد في سفره. لعله يكون خلاصه مما هو فيه. هكذا فكر وخفف من ضغط قلقه على ذهنه وأعصابه.

مع بداية اليوم الجديد وشروق شمسه كان حميد قد أخذ حماما سريعا وحلق ذقنه وارتدى ثيابا خفيفة رغبة في رشاقة جديدة واستبدال ثوب الماضي بثوب السفر- المستقبل، الحاضر والآتي.

كان توديعه لأسرته خلال تلك الليلة المشؤومة، ولم ينتظر استيقاظ أحد أفرادها في الصباح. لم يرغب في أي تواصل يربطه بهذا المكان في صباحه الجديد. خرج مباشرة وقصد محطة القطار. سأل نفسه عن عبثه الجديد:

- أيعقل أن أسافر بدون معرفة إلى أين؟

نظر إلى اللوحة الإلكترونية، فلاحظ أسماء مدن عدة كلها متتابعة لكنها باتجاهات عدة: إلى الشرق وجدة، إلى الشمال طنجة، وإلى الجنوب مراكش.

- أين أكادير؟ الحسيمة؟

إذا القطار هو الذي سيحدد وجهة السفر:

- سأختار إحدى رحلاته المبرمجة خلال ساعات هذا الصباح الأولى.

نظر إلى الساعة اليدوية، ووجد توقيتها هو السادسة وعشرون دقيقة. في اللوحة الإلكترونية يشير اتجاه مراكش لتوقيت السابعة وخمس عشرة دقيقة. اختيار مناسب. شعر بالانتصار في مفاجأة القدر ما دام هذا الأخير قد فاجأه بغير المنتظر.

أخرج محفظته من جيبه وتوجّه إلى شباك التذاكر، حتى إذا كان دوره أمام المكلف هناك، نظر إلى عينيه علّه يكون عارفا بسبب سفره أو مستفسرا عما وقع. في بعض الأحيان ننتظر من الغريب أن يحدثنا بحقائق دواخلنا. نجعل لسحر التخيل فرصة في الانقضاض على واقعنا. استنتج غرابة النظرة، رغم تواصل التحية والسلام:

- تذكرة لمراكش من فضلك... كم ثمنها؟ ... شكرا.

قصد بعد ذلك المقهى ليتناول الفطور والقهوة السوداء خلال النصف ساعة المتاحة تقريبا، والتي ارتأى استغلالها في هذه الضروريات اليومية قبل دخول الرصيف لركوب القطار. نظر إلى الجالسين في المقهى، فوجد نفسه مثلهم مستعدا بحقيبته لمغادرة المدينة رغم أنه لم يأت معه أحد لتوديعه أو لصحبته في هذا السفر. كانت حقيبة همومه أثقل. عله يتركها في هذا المكان قبل تركه لكرسيه المنتظر معه. أحدهما سيذهب بعيدا والآخر سيبقى ملتزما مكانه. انشغل عن أفكاره الموترة بمراجعة حسية لما يرتديه، ولحذائه ومدى لمعانه. مسح زجاج نظارته الشمسية، ومرر كفه على ذراعيه وركبتيه في تلاؤم مع لونيهما المتناسقين. كان قميصه بكم مثني ولون رمادي فاتح جدا. وكان سرواله الأسود هو المفضل عنده خلال السفر حيث يناسب زوجتي حذائه في فصالته حتى ملمس قدميه.

ـ ما الذي سأحتاجه خلال هذا السفر – الخلاص؟ هكذا تساءل وفكر من جديد.

لم يجد سوى أجوبة عادية في ذهنه:

- أشتري بعض الجرائد أو المجلات.

ببعض دراهم اشترى جريدتين بعد تأكده من حمله لقلم حبر في جيبه، مفكرا في الشبكات المسهمة التي سيملأ بها الوقت أو سيقتله، كما عبّر عن ذلك، لشغل العقل والذهن خلال الرحلة.

لم يغب عن بال حميد التفكير في حبيبته الجميلة التي جعل أبوها حلاوة علاقتهما مُرّةً، وقُبَلاتهما العذبة أرقا تنحبس حنجرته حين تذكرها. ابتلع ريقا ممتلئا بطعم القهوة والسيجارة التي شربها ودخنها خلال هذا الصباح. لم يغب عنه التفكير في البحث عن رفقة خلال هذه الرحلة. قد تكون من بين المسافرين أو المسافرات. ذاك أفضل من شعوره بالوحدة خلال هذا السفر. ربما شعر بالرغبة في الانتقام. لكنه لن يكون انتقاما من حبيبته بقدر ما سيكون انتقاما من أبيها، أو هو انتقام من نفسه التي أصبحت تهدده وتتهمه بالعجز عن التحقيق، جاذبة له إلى دائرة العقد المنسية لكي تراكم جديدها الآني وتزيد الطين بلّة.

لم يكن الأمر ملحا. المهم أولا هو هجر هذه الديار التي أصبحت أطلالا فارغة نسبيا ما دام القلب موجعا بما حُرم منه، ومادام ذلك الشعر الذي درسه وغناه حول عشاق مثل ليلى وبثينة وغيرهما، حاضرا في ذهنه، ملهما بالتحسر والأسف على فقدان العزيز. لقد أصبحت مكابد قيس وعمرو، مكابده هو كذلك. حلّت آلامهما في وجدانه. أصبح مستنسخا لأدوارهما ومحنهما. وكم من لحنٍ هذا الصباح شوّش على ذهنه وسمعه، وهو متحمل لمضمون شعره في الحب والحسرة والفقدان. (فلنراكم المحن والمصائب ونتنهد على الحبيبة حتى الألم ونتجرع ويلات الأخبار حول عراقنا وفلسطيننا... هي الطامات التي كتبت علينا حتى يذهب الله عنا هذه المحن). هكذا سيّس قضيته وجعلها في درجات التأهب القصوى لحرب ذاتية مع نفسه. لكنه نجا من حروبها الحامية ولجأ إلى عالم طربه الداخلي. دندن كأنه مجنون يحتاج إلى هبل لحظات الحزن:

{الليل يا ليلى يعاتبني

ويقول لي سلم على ليلى...}.

غيّر مجرى الوتر، وانتقل من إيقاع إلى آخر:

{اصبر يا قلبي اصبر

شْحَالْ قاسيتي من العذاب

اصبر...}

...

فجأة، دفع حميد كل هذه الكلمات والألحان بعيدا عن تفكيره. لقد شعر بالتوتر من جديد وهي تشغل ذهنه بضجيجها. كان طربا خادعا وموهما. كانت طبول حرب داخلية وخفية تستعد للهجوم عليه. الآن أصبحت ضجيجا وعدُوّة بعد أن كان يتغنى بها لعزيزته في جولاتهما وهو صاحب الصوت المطرب، في الطبيعة أوفي اتجاهات شوارع المدينة القصية عن الأنظار أو ضواحيها.

رغم الحسرة والرغبة، آثر الجلوس في مقطورة شبه فارغة واتخذ موقعه قرب النافذة بعكس اتجاه القطار حتى يبدأ سفره متمتعا بمناظره ومريحا بصره، منظفا

به ذهنه ومحاولا إقفال صفحات أمس وما قبلها. ولك اللحظة التي أنت فيها يا حميد. هكذا استسلم لقدَر الفكرة التي عبرت ذهنه.

بدت علامات الانشراح على وجهه بمجرد انطلاق القطار. مدّد رجليه واتخذ وضعا مناسبا للاسترخاء وتصفح الجريدتين، مع مراعاة الشخصين الجالسين معه في المقطورة.

أغمض عينيه للحظات، فبدت صورة حبيبته سمية أمامه هادئة جامدة، لم يقطع بعد وصل حبها. انفلتت ابتسامة منه وكأنه في حلم بين اليقظة والمنام. قد غيّب تلفظ اسمها خلال هذه الساعات، لكنها نقشت بحروفها دواخله معلنة الحضور والاستغراب مما يفكر فيه وينوي فعله. تمنى لو أنها الآن بجانبه في مشاهدة هذه التضاريس والقرى والمدن التي يعبرها القطار. كان سيُحدثها عن أصدقائه ومعارفه الذين يقطنون ببعضها. فكم زارها وتجول فيها وترك آثارا وذكريات طفولة وشباب. تنهد وأخذ نفسا في أعماقه شعر معه بانجذاب دقات القلب زيادة. فرْقع أصابعه تحسرا على علاقة أراد لها الرسميات، وتداخلت الصور: فتيات تربطه بهن أواصر تعارف ومودة، وهو الذي له علاقات كثيرة، خصوصا وأنه يعمل خلال العطل وفي نهاية بعض الأسابيع كمطرب وعازف في جوق موسيقي شعبي وعصري. كل مرة يصطلح عليه الناس تسمية حسب نوع الأغاني المرغوب فيها. كيف سيكون التعويض والنسيان؟ لو أنه هاتف سناء لرافقته بدون تردد في هذه الرحلة التي يود تضميد جراحه فيها. لكان خدها على كتفه وهي سعيدة بمرافقته، وهي التي تحب السفر كثيرا وأخذ الصور والذكريات من كل مكان تزوره. لا يهمها المجتمع وتقاليده. لم ينس يوم قالت له:

ـ الفتاة في مجتمعنا لا تجد حريتها وشخصيتها وراحتها إلا مع السفر والابتعاد عن دائرة الأسرة والقبيلة والقرية. تتحرر من كل ضغوط المراقبة وقيودها. انظر إلى طالبات الجامعة، جلهن تتغيرن في أسلوب الحياة داخل فضاء الكليات والمدن الجامعية.

يتفكر حميد تحليلاتها التي لا تتعب منها وهي الطالبة التي تريد تغيير كل شيء في مجتمعها وحياتها.

ـ لا بأس سأحاول أن أنسى كل شيء خلال رحلتي وأغيب عقلي عن التفكير في كل ما يضجرني ويقلقني.

هكذا أصبح عزمه على استغلال السفر للتعويض والنسيان واستبدال حال بحال. أخذ القلم لملء الكلمات المسهمة. كتب كلمتين أو ثلاث، وأعياه البحث عن حل للرابعة. أعاد القلم إلى جيبه واستدار لتأمل باب المقطورة التي يمر بجانبها في الممر مسافرون جدد صعدوا من المحطة الموالية لمدينته مكناس. بدا عدد المسافرين عاديا. ليس هناك ازدحام، رغم أنه فصل الصيف. ربما لأنه يوم أربعاء وليس نهاية الأسبوع، أو لأنه الرابع والعشرون من شهر يونيو حيث لم يتسلم الموظفون بعد رواتبهم لينطلقوا في سفريات الصيف مع أسرهم وأقاربهم. مضت بضع ساعات، كسر خلالها حميد الملل وكثرة الجلوس بأخذ خطوات ذهاب وإياب بين ممرات القطار. وكان الوصول إلى محطة مراكش. أخيرا نهاية الرحلة والنزول لكل المسافرين. أخذ حقيبته وقصد هاتفا ثابتا في زاوية من مدخل المحطة. كلّم والدته مخبرا إياها برحلته والمكان الذي ذهب إليه.

لقد اعتاد في بعض الزيارات الماضية النزول بفندق واحد في كل مرة. لذا ذهب إليه مباشرة، راكبا سيارة الأجرة. كانت حرارة اليوم مرتفعة. وكان أول شيء فكر فيه هو أخذ حمام يزيل عنه ضغط الجو وتعب السفر.

ـ الغرفة رقم 6، الطابق الأول، أنت ضيفنا وابن الدار. هكذا كانت جمل الترحاب بحميد من طرف موظف الاستقبال عباس.

شعر حميد بالارتياح لأنه بدّل مكانا بمكان وأناسا غدروا مشاعره وجرحوها بآخرين جدد سيعاملونه كضيف ووافد مرغوب فيه ومرحب به.

استرخى على السرير مبللا بماء دافئ بقي على أطراف جسمه جراء أخذه لدوش ناعم. استحلى الاسترخاء لدقائق عدة، لاحظ بدقة فيها فضاءه الجديد وسبح بذهنه في تساؤلات عن زبائن الفندق لهذا الموسم وعن مرافق المدينة

القديمة والجديدة. هو السفر، يتوق فيه الإنسان إلى الجديد والمفاجئ فيه. يحلم أن يكون الفضاء بدرجات أمانيه وتحقيق رغباته معها. أراد الذهاب في نومة خفيفة لولا أن أمعاءه أشعرته بضرورة تناول غدائه. رغم أن الساعة تجاوزت الثالثة بعد الزوال فإنه لم يأكل شيئا منذ الصباح، سوى وجبة الفطور.

نهض حميد وارتدى عباءة وبلغة من الدان لونها متناسق مع لون اللباس. أزرق داكن وأزرق فاتح. تناسق جميل استنتجه وهنِئ له. مشط شعره أمام المرآة ورش برذاذ عطر على صدره واستدارة عنقه، ثم خرج قاصدا مطعما من بين المطاعم الموزعة بين الدروب الجانبية لساحة جامع الفنا. تناول وجبةً وانصرف للبحث عن مقهى مناسب وواقٍ من حرارة هذا الصيف الملتهب في مراكش، وما أدراك ما حرارة صيف مراكش، التي تجعل الناس صاحين بالليل مقاومين لها بصخب ساحة جامع الفنا، باحثين في حدائق المدينة ودروبها عن راحة ما أو عن برودة يهبُّ بها نسيم جبلي من بعيد.

...

{هكذا يبدأ السهر ويحلو مع تفاعل التجمعات البشرية في فضاءات مراكش. لعل كل فضاء يحتاج إلى تغطية الكُتاب والصحافيين يوميا لتسجيل ذكرى وتراث المدينةِ الحيّ في كلام وعادات الناس وتفاعلاتهم، وفي ارتسامات السياح كذلك، المشدوهين لهذا العالم القروسطي بأسواره وزيه وحيوية ساحاته، وعجائبه الآتية من أدغال التاريخ وإفريقيا وآسيا... إنها بصمات تاريخ متجدد وحَيّ، روحه متجددة مع هؤلاء الأشخاص الذين يتقنون الأدوار مع ما هم فيه، أدوار الحياة طبعا. والكل يحيى الحياة}.

كانت هذه الملاحظات من إضافة السارد الذي سمع وتلقى حكاية حميد بحكم علاقة الصداقة الجامعة بينهما كأبناء مدينة واحدة. سيكون السارد شبحا يخترق الحكاية لكي يحولها إلى نسيج سردي وروائي. سيصبح كذلك مسكونا بشبح الحكاية والرواية التي ينسجها. فأن تسمع كلاما لا يعني عبوره وغيابه. لقد اخترق ذهنك وأصبحت موجها برياحه المتراقصة كوردة ريح مجنونة. ماذا لو

جرّبت ما سمعتُه؟ ماذا لو تقصيت أثر الحكاية المروية واختبرت تحققها؟ هل سأعيد وقوع نفس ما وقع أم سيكون هناك المتغير والمفاجئ؟

تلك أسئلة السارد التي اخترقت متن هذه الرواية. لا يدري إن كانت الآن قد بقيت رواية واحدة أم هما روايتان أو ثلاثة.

للسفر حريته الخاصة، انفلات من قيود حياة الجماعة والرقابة الداخلية والخارجية وأدوار التمثيليات الأسرية فلان بن فلان، ومقاييس السلوك النمطي المطلوب في الحي والشارع. تتنفس الروح الصعداء وتحمد الله على هذه الاستراحة ولو كانت مؤقتة، فتهيم في اشتياق ما لذّ وطابَ. كلها إيجابيات في السفر. لكن حميد لا زالت ناره مشتعلة في دواخله. لذا فكّر في إطفائها بنار أخرى تأتي على الأخضر واليابس مما تبقى من ذكر حبيبته وأبيها.

ويقف السارد كما وقف الحاكي للقصة في نفس الزاوية ونفس الزقاق والأفق المرسوم. كلاهما يفكران في الآتي. أحدهما سردٌ من الماضي والآخر سرد مرتقب فيما سيأتي. لكن خيال السارد كان المخترق للأزمنة حيث يعيش ويسافر بين الماضي والحاضر والآتي منها، بِحرية بحّار داخل محيط شاسع. سيصنع ويضيف مثلما سيغير الوصفات كأنه طبّاخ، كل يوم يقدم أطباقه بذوق وطعم جديدين.

...

قصد المدينة العصرية (جليز)، وبعد أن دفع لصاحب سيارة الأجرة الدراهم المستحقة، لمح بعينيه دكانا خاصا ببيع الخمور، فاشترى قنينة ويسكي وعاد إلى فندقه ليخلو بنفسه ويتحاسب مع سبب سفره كأنه عدوه الذي سيواجهه داخل غرفته رقم 6، أو خلاص سينتهي همّه بعد إفراغ قنينته. هكذا تخيل وتصور. ولم تأت الساعة السابعة مساء حتى كانت بضع كؤوس وقد تناولها ضيف فندقنا، وشعر بحدتها في حلقه ومعدته. لذلك قرر الاكتفاء بما تناول والخروج لملاقاة

العالم السحري الذي لا يدري هل هو في الخارج أم في عالمه الداخلي المتأثر بكؤوس من الويسكي.

احتار السارد، هل يقدم على قام به حميد فيقتني هو الآخر قنينة ويجعلها محفّزه على الإقدام والمغامرة؟ أيّ مغامرة! تعجب من أمرِه. لقد خاف المحاكاة والتماهي. كان السارد قد خاض ويخوض تجارب تفاعل عبر مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة. تعرف على كثير من الأسماء، والتقى ببعضها وشارك البعض منهن مغامرات هنا وهناك. إنما اختياره لرفيقة السفر وجعل اتجاههما مدينة مراكش، كان تدبيرا مسبقا، بعكس ما قام به حميد. قام هذا الأخير بتحقيق الدهشة والمفاجأة والإنجاز غير المتوقع من خلال سرعة تعرفه وتواصله في عز أزمته العاطفية والاجتماعية. أما السارد، فقد كان مهندسا ومرتبا لما سيقع ويقلد به الحاكي، حتى يضمن نجاح تجربته وانتقاله لتدوين حكيه الجديد وسرده المروي هنا رواية مشتهاة.

اسمها فاتي. لا ندري إن كان اسما حقيقيا أو مستعارا. سنحذَر مع السارد، وقد نتفهّم كل ترميز في حكيه وسرده. تعرّف عليها في موقع 'أبكور' وقد دوّن ذلك بحبره وقلمه. التقيا لمرتين بمدينة سكناها وبعدها اتفقا عبر تواصلهما الرقمي المتكرر على السفر المشترك الجامع لهما في متعة تقارب واكتشاف. كان تقاربهما العمري واشتغالهما في نفس القطاع التعليمي وتخرجهما من الحياة الجامعية من نفس الكلية، مساعدا على توافق قيم تحررهما ورغبتهما في المضي قدما بهذه الصداقة والعلاقة.

انطلق القطار الذي كانت على متنه فاتي من مدينة فاس، واستقل السارد نفس رقم الرحلة من مدينة مكناس. لم تكن التذاكر يومها محددة برقم المقعد والمقطورة. الاتجاه مدينة مراكش.

ويحكي السارد ذلك:

مرحبا سي حميد. ها أنا الآن في خوض تجربتك رغم مفارقة منطلقها. ستلتقي قصتنا وتجربتنا في مدينة مراكش. لِنَرَ ما الذي يمكنه أن يتحقق من تماهٍ بينهما.

...

لم يكن حميد ليترك الخمر تؤثر على خطواته وكلامه. فبعد تجوال واكتشاف وتمتيع للنظر بمشاهد "ألف ليلة وليلة" التي تجعل العجائبي يندرج كمخيال في التعبير بها، قصد مقهاه المفضل بالليل في برج عال فوق سطح يطل على ساحة جامع الفنا بدخانها وأبخرتها وأضوائها وأصواتها. كأن الناس هم الذين يتبخرون ويتحولون من تشكلاتهم المادية إلى روحية تخترق سمع وبصر حميد.

...

رآها السارد لوحة امتزجت فيها الأصوات والأبخرة والألوان والأشكال المادية والكائناتية. كما تخيّل رسم اللوحة التشكيلية القريبة منها. تفكّر جذبة گناوة[1]، ووُجْد الفنان التشكيلي المغربي في تشكيل لوحته بجعل صباغة الألوان تتراقص في إرسالها للوحة الجدار الكبيرة التي أبدعها. إنه الفنان عبد اللطيف الزين الملقب بالرسام الكناوي. كانت الروح والحركة وكان الرقصُ والجذب، وكان اللاشعورُ المبرمج عناصرَ موجّهة في الإنجاز. كان فعلا تشكيلا مركبا، لكن ليس من صباغة ألوان فقط، بل من أرواح وأجساد وأنغام ورقصات، وكأنه الكون في انفجاره تماهيا وتحققا وجماليا.

...

تحسّر الاثنان لثانية أو اثنتين. كلاهما انحبست دواخله مع مفقود أو محروم منه. نفس المقهى، نفس اللحظة من الليل. إنما التهييء النفسي والمادي والتحققي مغاير نسبيا بينهما.

[1] فن وموسيقى ورقص كناوة: تراث موسيقي مغربي ذو بُعد إفريقي، يمزج بين تعبير الذات ومعانقة الروحانيات في العزف والرقص.

بقي حميد واقفا لدقائق، مشاهدا لهذه البانوراما أمامه وفي ذهنه، علّه يجد خلالها كرسيا يجلس ويستريح على طاولته، وآلة التصوير على كتفه. هو السائح الجديد الذي جاء ليحارب الماضي ويستشرف اللحظة الآنية والمقبلة.

نظر حواليه فلاحظ وجود طاولة تجلس بها فتاة أو سيدة، لا يعلم بم يناديها. استسمحها في الجلوس بجوارها، فكان جوابها نوعا ما قاسيا:

ـ دائما تبحثون أنتم الرجال عن مبرر لمحادثة النساء.

أجابها حميد وهو الهارب من توترات المرأة والتفكير فيها، وفعل الخمر يجعله جديا في جوابه وأكثر جرأة ووثوقا من كلامه:

ـ اسمحي لي، إنني فقط لم أجد مكانا أجلس فيه، لذا طلبت الجلوس بجوار طاولتك، فأنت ترين أن المقهى لا طاولة فارغة فيها ولا كرسي. لا بأس، سأجد مكانا آخر.

لاحظت فيه صرامة الرد وعدم استعطاف أو مجاملة متصيدة للنساء، فأجابته بسرعة وبنبرة أكثر لطفا وبشبه اعتذار:

ـ لا بأس، اعْذُرني. يمكنك الجلوس. أنت تعرف أن البعض يرغب فقط في إزعاج كل فتاة يراها مارة أو جالسة في مقهى أو حديقة. أعتذر مرة أخرى، يمكنك الجلوس.

ـ إذا سمحت، آلة التصوير هذه أمامك. سأتركها لأبحث عن كرسي فارغ أتخذه للجلوس.

تعجبت الفتاة للشخص الغريب الذي يترك ممتلكاته لدقائق ولم يَخَف من مدينة سكانها زوار وأجانب وعابرون. استشعرت ائتمانا للآخر، وابتسمت داخليا لوجود من يتوفر على هذا الاطمئنان والثقة الغريبة.

جاء حميد بكرسيه، وجلس بجوارها متفرجا على فضاء ساحة جامع الفنا. لم تنزعج الفتاة من وجود كأس شايٍها محاذيا لآلة تصوير حميد وقنينة المشروب الغازي الذي نادى عليه حميد. هكذا أصبحت الطاولة ملكا مشتركا بينهما

وأصبح استعمال فضائها موزعا بين أيدي الطرفين مع مراقبة الحركات فوقها من طرف كل واحد منهما.

لم يكن حميد ليشعر بضعف الموقف أمام هذه الممتنعة الغاضبة من سلوك الرجال، وهو الذي لم ينو أبدا التحرش بها. طلب منها أن تأخذ له صورة فوتوغرافية مع مشهد ساحة جامع الفنا، فلبّت طلبه بهدوء وبتأن في التصوير مبتسمة لوقوفه المتهيئ لأخذ صورة مع طول الابتسامة التي أظهرها والتي ربما أجهدته حتى التُقطِت له هذه الصورة. عادت لجلستها بحسها الأنثوي المناسب لها، ما أثار في حميد رغبة في الحديث معها. لعل الاشتراك في هذا الفضاء الساحر سيجعل الانجذاب بينهما ويذوب الموانع والحواجز الرقابية، ويشجع على تبادل الكلام والحوار.

لقد كانت أشكال اللوم والغيرة التي يتلقاها ويُعاتَب عليها مرتبطة بانفتاحه المفرط في التواصل مع الأخريات. كان يبرر ذلك بكون ممارسته لفن الغناء مع الجوق في الحفلات يفرض عليه ذلك. لابد من الابتسامة والكلمة الحسنة والمباركة. كانت كل عروسة تتلقى أجمل هذه الكلمات التي تجعلها ملكة الجمال وسيدة الكون. كذا العريس الذي يصبح سلطانا. مقام الحفلة يكون فيه الطرفان في حلم سينقشع مع نور الصباح الموالي. كلٌّ يبدأ يومه الجديد بواقعيته المناسبة له:

ـ لا تغاري حبيبتي مما يصدر مني. كلهن ترغبن في كلامي وليس فيّ أنا. أنا مجرد طائر مطلوب منه أن يغرد، ولن أكون الهدهد الذي يحقق الأمنيات ويأتي بعرش بلقيس في حضرة الملك سليمان.

...

يفكر السارد في هذا التشبيه الصادر عن حميد ويجده رائعا في الوصف ومحتاجا إلى مزيد تحليل. لكنه اكتفى بالجمالية التي نجح في التعبير عنها مثلما

احتاج إلى الغوص في دلالته الرمزية ومعرفته التاريخية لكي يتصور ويشكّل علاقة جديدة محتملة بين الملكة بلقيس والملك سليمان. تفكّر كتابات توفيق الحكيم ومسرحياته التي تعيد قراءة التاريخ بما هو علمي وموضوعي. جرعة السارد في استساغة المحكيات والمرويات.

...

لم لا ومراكش ملجأ أصحاب القلوب المرهفة. هكذا فكر حميد، ما دام يمتلك قلبا عاشقا كسر شوقه ذلك الرفض السلطوي والأبوي. وما دام يمتلك رغبة في السعادة والتعويض، فالسفر ملجؤه الذي أخرجه من همّ الأمس القريب. من أين سيبدأ هذا الحديثَ مع من يُجالسها في المقهى، والتمنعُ وضَعَ حاجزا في بدايته؟ بادر بسؤالها:

ـ هل أنت زائرة لمدينة مراكش أم من سكانها؟

ـ لمَ تسأل، أنا جلست هنا راغبة في الانفراد لا أريد حديثا مع أي كان واعذرني على كلامي فأنا لست في أحسن حال.

ـ اسمحي لي، أنا كذلك لست في أحسن أحوالي. ولكني لا أقدر على الجلوس بجوارك دون أن أتبادل معك الحديث. ما دام الإنسان إنسانا لابد له أن يتبادل أطراف الحديث والكلام. أنا كذلك جئت إلى مراكش راغبا في الابتعاد عن الناس وفي أن أستريح من همّهم. ولكن لابد من التعارف والتحاور، فهذه طبيعة بشرية. قد يكون كلامي فيه تناقض، ولكن لا بأس اسمحي لي على الإزعاج عموما.

ـ لا بأس. اعذُرني على طريقة كلامي فأنا أتيت يائسة قلقة ومتوترة. لقد مررت من تجربة قاسية أبعدت عني الرغبة في أي تعارف جديد أو كلام جديد. أنا لست من هنا.

فجأة وكأنه سدٌّ قد انفتحت فوهاته لصبيب كبير، فاسترسلت في الكلام:

ـ أنا من مدينة أكادير، كانت لي علاقة مع شخص تعرفت عليه، وقال لي إنه عامل بالمهجر وله مشاريع بالمغرب يأتي لمراقبة تسييرها. بدا لي كلامه متناسقا وحسنا جميلا، وتقرب لي بشكل لافت، حيث كانت اللقاءات كلها تصب في علاقة جدية. لقد تعرف عليّ بشكل جيد وعلى وضعيتي. فأنا أمتلك وأسير مشاريع تدر لي أرباحا مناسبة بمدينة أكادير. لقد ترك لي أبي تركة مهمة جعلتني أسهر على تطويرها وإقامة مشاريع جديدة، آخرها قاعة لممارسة الرياضة جاءت فكرتها من كوني شبه سمينة واحتجت إلى ممارسة التمارين الرياضية وحمية غذائية، ففكرت في طابق سفلي واسع أمتلكه في موقع مهم في المدينة. اتصلت بصديقة لي تمارس الرياضات بشكل محترف، فجعلتها هي المدربة وأنا أدير المشروع وأتدرب عندها...

ـ مشكلتي أنني وضعت الثقة التامة في هذا الشخص والذي أراد أن يرتبط بي، وأبدى اهتمامه وحبه لي وخوفه علي في هذه المدينة من اللصوص والطامعين. وصل الارتباط والخوف على شريكة حياته المستقبلية إلى طلب جعل شخصه وكيلا عني في أعمالي ومشاريعي حتى يريحني من تعب اليومي الذي ينسيني رشاقتي الأنثوية وراحتي الجسدية والمعنوية. جاءتني الفكرة مناسبة، فهو الذي أصبحت أحبه وأعوض به فقدان الأب وانعدام الأخ، ما دامت الأنثى عندنا تعيش في كنف وحماية الرجل دائما، خصوصا وأن المجتمع عندنا لا يريد للمرأة أن تكون بمفردها وبحريتها في تصرفها.

خلال الإعداد للأوراق الإدارية لهذا التوكيل، لم يبق سوى التوقيع والتسليم، شغلتني مسؤولية التجارة والمطعم والرياضة، وكانت لي صديقة بإسبانيا أخبرتها عن مشروعي في الزواج واسم هذا الزوج المرتقب وأنه يمتلك مشاريع في إسبانيا، فصادف أن كانت صديقتي تعمل بنفس المدينة الإسبانية التي ادعى مصطفى، هذا الاسم اللعين، ادعى أنه يعمل بها وله مشاريع بها. سألت نادية عن اسمه فلم تجد لمشاريعه ولا لاسمه أثرا، بل بالعكس لمست آثار سوابق لشخص له مواصفات من حدثتها عنه.

إنها صدفة القدر أن تأتي لحظة وجيزة تعري كل كذب نُسج خلال شهور طويلة. في تلك الليلة التي كانت الأوراق جاهزة، أكثرَ مصطفى من الاتصال بالهاتف مُبْدِيًا تسرعه في إمضاء الأوراق لأنه ليس لديه الوقت فيما بعد. فهو مشغول بمشروعه الجديد بمدينة الصويرة، ويريد الذهاب عاجلا إلى إسبانيا. صادف اتصاله الملح في تلك الليلة أنني كنت ملتزمة بالحصة الرياضية في الطابق السفلي للمنزل الذي أصبح قاعة رياضية. فطلبت منه ألا يقلق، فلا بأس إذا صبر يومين حتى أتفرغ معه للإجراءات. لا أكذب عليك إذا قلت لك أن مجموع ممتلكاتي يناهز المليار سنتيم، لكن النقود ليست كل شيء في الحياة.

بادرت إلى مكالمة عميد شرطة من معارف عمي عبد الحق بمدينة الصويرة. أعطيته الاسم والمواصفات ونوع المشروع الذي يسهر عليه زوجي المستقبلي، فلم يجد لكل ما ذكرته لك وله أثرا، بل كانت الصاعقة لما أخبرني بأنه قد يكون نصابا توجد مذكرة بحث في حقه. أرسلت صورته عبر الفاكس ولما بحثوا وجدوا فعلا أنه محتال ونصاب كبير. وكنت أنا الضحية السمينة الجديدة التي سينعم بها ويفترسها، وبين عشية وضحاها سأصبح مرمية في الشارع إذا ما قدر الله وأصبح وكيلي على ممتلكاتي ومشاريعي وباع كل شيء وانصرف إلى مكان آخر بما سيكسبه. قصتي طويلة وكلها هموم ولا أريد أن أثقل سمعك بها، فاعذرني على هذه الصراحة في أموري الشخصية.

صخب الغيطة والطبول والأصوات امتزج مع الأضواء والأبخرة. كانت مفارقة تفريغ الهموم مع احتفالية ساحة جامع الفنا تومئ بولادة ملحمة جديدة سيشكلها هذا الثنائي الذي بدأ لقاءه بالتنافر، لكنه ربما سيؤول إلى وئام. في المحكي للسارد، كان ذلك هو المآل.

حاول حميد كذلك تفجير جام غضبه الداخلي وتفريغ همومه ومشاركتها جلسة الاعتراف وتنفس صعداء هموم الحياة:

ـ أنا كذلك جئت إلى مراكش مبتعدا عن مشاكل شخصية أقلقت مضجعي وضاقت بي بسببها ظروف مقامي في مدينتي. فلذلك أتيت إلى مراكش لأستريح

وأنسى. نحن نشترك في نفس سبب التواجد. لا أحد في هذه الدنيا يعيش سعيدا وهانئا دائما.

قاطعته الفتاة مبدية رغبتها في تتمة تفريغ مشكلها:

ـ تصور أنني كنت أفكر في أن أصبح ربة بيت لأتفرغ لتسيير المنزل في الداخل وتربية الأولاد، وهو سيكون المتصرف والآمر والناهي في كل شيء. كل هذا كان حلما سيوقعني على رصيف عار، بارد وقارس، لن يرحمني الناس حينئذ إذا أصبحت أفترشه وأعيش فيه ربما لغبائي أو...

سألها حميد متوددا ومنفسا عنها حرارة تنفسها التي أشعلها حديثها:

ـ اسمحي لي، لم أتعرف على اسمك؛ هل من الممكن؟

ـ أجابت: أنا اسمي سعاد، وكما تعلم من حديثي فأنا من مدينة أكادير زائرة هنا لمدينة مراكش لبضعة أيام.

ـ هل أتيت عند أقرباء لك؟

أجابته سعاد:

ـ لا. أنا أقيم بفندق (أسماء) في جليز.

حميد، مُبديا الاستعداد لدور المبشر بساعة فرح أفضل:

ـ هل من الممكن أن آخذ لك صورة وأنت جالسة هكذا؟

اعتذر على طلبه هذا، وانتظر ردها.

سعاد، بقبول جاف نسبيا:

ـ ممكن، تفضل.

أبدع حميد في قبضته لآلة التصوير مبديا تفننا وإتقانا في ضبط لمقاييسها. رمشت سعاد مع بريق ضوء الآلة أعينها مبدية ابتسامة جديدة لم تلاحَظ على ملامحها منذ جلوس حميد بجانبها.

حميد مجددا:

ـ اسمحي لي بتقديم مشروب، ولا تعتبري المسألة عيبا ولا ترفُضيها. هي مجرد استضافة بسيطة.

قبلت سعاد بابتسامة هادئة طلبه خاطفة نظرةً لبقة فيها من التودد أكثر مما فيها من التوجس والخيفة.

لم ينتبها إلى الساعة حتى وقت متأخر. فجأة لاحظ على أنه مرت أكثر من ثلاث ساعات على جلوسهما وحديثهما وحوارهما الذي سبح في مواضيع عديدة مألوفة وجديدة كذلك على بعضهما البعض، في كل مرة يأخذ أحدهما المبادرة ليبرع في الجديد الذي لا يعلمه الآخر. لاحظت سعاد أن الساعة أصبحت متأخرة ويجب عليها أن تعود إلى الفندق. نزلا معا من سطح المقهى عبْر الدرج الحلزوني الموصل إلى أرضية المبنى. استسمح حميد في أخذ رقم هاتف سعاد للقائها من جديد، فأبدت قبولها بذلك وأعطته رقمها آخذة جرأة صراحة بادرت بها منذ البداية:

ـ اسمع أريد أن نتعارف ولكن لا أرغب في سماع كلام عن زواج أو شيء من هذا القبيل، فأنا لم أعد أحتمل خداعا جديدا. هكذا أحسن حتى نكون صرحاء ومرتاحين. أصدقاء فقط.

حميد:

ـ ليست هناك مشكلة، فأنا كذلك خرجت من مشروع زواج لم ينجح، ولا أريد التسرع في مشروع جديد.

في طريق عودته إلى الفندق فكر مليا في هذا التعارف الجديد واستغرب لنوع العلاقة التي تريدها صديقته الجديدة، فوجده مناسبا لخلق سعادة غير مشروطة بدون التزام أو مراوغة في تحقيق رغبة ما.

هكذا وبمجرد وصوله إلى مكتب الاستقبال أسرع إلى مكالمة الموظف المستخدم:

ـ من فضلك أريد مغادرة الفندق الآن. هناك أمر طارئ ومستعجل أضطر معه للذهاب.

طلب حساب ليلته في الفندق وصعد إلى غرفته وجمع لوازمه في الحقيبة وخرج للركوب في سيارة أجرة صغيرة قاصدا فندق سعاد الجديد.

دخل إلى بهو الفندق، وأمام مقر الاستقبال لاحظ أن الفندق أرقى نوعا ما من الذي تركه، ففكر في ثمن المبيت الباهظ ربما، ولكنه أراد المجازفة بما يمتلكه من نقود المهم أن يستمر في تحقيق ما يريد:

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله.

ـ من فضلك لقد اعتدت النزول في الغرفة 26 فهي تروقني وأرتاح فيها أكثر في فندقكم.

لاحظ المستخدم غياب المفتاح عن جداريته، ونظر إلى الملف أمامه:

ـ أعتذر فالغرفة محجوزة من طرف زبون آخر.

...

من أين جاء حميد بهذا الرقم 26؟ يعلم أنه رقم الغرفة التي تنزل بها سعاد. فخلال حديثه معها في المقهى ذكرت له الفندق ورقم الغرفة وشكلها وجمالية منظرها المطل على المسبح. يريد أن يحجز بجانب سعاد في هذا الفندق. هكذا فكر ودبر وخطط لرحلته الجديدة.

تساؤلات السارد ارتبطت بوضعه حين نشر روايته في حلقات عبر مواقع إلكترونية عدة ومنتديات اعتاد النشر فيها. حتى من متابعيه ومتابعاته، فقد كان لهم تعليقهم المناسب حول مجريات الأحداث في الحكي. يبتسم في قرارة نفسه. يعلم تدبيره للأحداث وجرأته على جعلها بهذا الشكل المتحرر. لم يكن هو الذي اختاره، فقد كان حميد هو الممتلك لقوة الحكي سواء كان واقعا أو تخيلا. كان ممتلكا لقوة كبيرة في درجة التحرر والتحقيق لرغباته أكثر مما سيحاوله ربما السارد في محاكاته.

لكنه ابتسم لوضعه الخاص به كسارد. كان مطمئنا من نجاح علاقته مع فاتي. هذه التي جلست أمامه بنفس المقهى أعلى سطحه في فستانها الأنيق واملزين

بورود زاهية، وفي انسدال شعرها فوق كتفيها ونضارة صفحة وجهها وابتسامتها. سلاح المرأة في الجمال حسنُها. هكذا دوّن ملاحظته. لكنه أضاف إليها ما يكون به موضوعيا: سلاح الشخصية عقلها وتوازنها. هكذا جعل ميزان التقويم للجميع سواء كانت سعاد مع حميد أو هو مع فاتي.

ضحك كثيرا حين سماعه لتعليق تاجر في محاورة لآخر يقابل دكانه:

ـ الورد وقصبه، يُكسّره الريح وينثره. الله يكون في عون لالة!

أدرك بحدسه أن فاتي هي المقصودة نظرا لنحافة جسمها. هذا ما يعلمه عنهم. أدرك كذلك أنه المعني بمن سيكسر رشاقتها. يعلم أن ثقافة مثل هذه تفضل المكتنزات. غمرت دموع وهستيرية مقلتيه. سألته فاتي:

ـ ما بك؟

ـ لا شيء. أنت فقط في مدينة تفضل السمينات. وأنت قضيب خيزران.

قهقه فربتت بقوة على كتفه:

ـ الله يبعّد بلائي عنهم!

...

كان السارد قد وصل مع صديقته إلى محطة مراكش للقطار واستقلا معا يدا في يد، سيارة أجرة صغيرة مباشرة إلى فندق أسماء. الجرم مقصود في التنزيل، رغم أن فاتي لم تكن على علم بتداخل القصتين وهذيان ذهن السارد في التماهي وتحقيق المحكي في الواقع ثم تحويله إلى رواية. نعم كانت فاتي ترغب وتود في أن تكون بطلة إحدى شخصيات رواية من رواياته، لكنها بحلمها لم تكن تدرك مدى جرم السارد في توظيف الشخصيات واستراق الحياة اليومية وخصوصيات كل فرد والتعسف الذي يكون عليها.

لو أن فاتي علمت بكونها في أداء تمثيلي يعكس أدوارا أو كومبارس يحاكي شخصية سعاد خلف القصة الأصلية، لكانت القيامة قد قامت واشتعلت نيران

غضب لن يعلم كيف يطفئها هذا السارد اللعين، وما يمكنها أن تحكم عليه به. ويستمر في لعبه اللعين بتساؤله:

ـ من الكومبارس في الحقيقة؟ سعاد أم فاتي؟ كلاهما يعيشان أو عاشا الواقع الخاص بهما في علاقاتهما واختيارهما. كلاهما استمتع مع الآخر ومع اللحظة ومع قصته الخاصة. هناك الميتا سرد الذي سيجعلهما كذلك في تبادل الأدوار. وهذا ليس عيبا مادام افتراضا سرديا وإبداعيا نقلهما من الواقع إلى التخيل الانكتابي الذي أعيشه معهما.

يعود السارد إلى "حميدِه وسعادِه":

...

المستخدم من جديد:

ـ سأعطيك مفتاح غرفة بجوارها لها نفس مواصفاتها، كم تريد أن تقيم معنا من أيام؟

ـ أربعة أيام، وربما أكثر إذا لاءمني المقام.

ـ الغرفة 27، تفضل! بطاقة التعريف الوطنية من فضلك.

ـ تفضل! وشكرا على كل شيء. تصبح على خير.

أخذ حميد مفتاح الغرفة وعرج إلى مقامه الجديد مبتسما وعيناه تملؤهما جرأة المغامرة واختراق الجديد للخروج من لبوس ثوب قديم قض مضجعه وأضجره. رغم أنه أخذ زفيرا حاميا في تنفسه إلا أن ذلك لم يثنه عن الشعور بالسعادة فيما أقدم عليه. كان ينوي جعل تكلفة الرحلة أقل، بما جلبه معه من أوراق مالية، إلا أنه سيضطر لاستعمال بطاقته البنكية والاستعانة برصيده المالي فيها.

دخل إلى الغرفة ورتب لوازمه ووضع قنينة الويسكي التي ربما هي ملهمته ومشجعته على ما يقوم به من غرائب، فوق الطاولة. أخذ دوشا جديدا يستعيد معه راحته، ويستعدّ به لمقامه وما سيقدم عليه. خرج منه ملتحفا فوطته إلى شرفة الغرفة. نظر إلى الساعة ولمح النور الذي ما يزال مصباحه مضيئا في الغرفة المجاورة، فأخذ هاتفه المحمول وضغط على الزر مناديا الرقم الجديد

الذي سجله. إنه رقم سعاد. وهو يتأمل بكل جمالية منظر المسبح من فوق وأطلال الشرفات والأضواء الخافتة في بناية الفندق، ودّ لو أنه نزل للارتماء والسباحة. أعجبته الأضواء المتشاكلة مع النخلات الثلاث المحاطة بالماء.

وقف السارد هو الآخر متماهيا مع حميد، كل في زمنه. تأمل المسبح وتلك النخلات الثلاث. أعجبه تموضعها في مربع نباتي وسط المسبح. تساءل عن أسلوب تفسيرها والتعبير عنها. فكر في رمز الواحة وسط رمال الصحراء، وكذلك في رمز الجزيرة الصغيرة المحاطة بالماء. كلاهما وصفان مناسبان لعمل فنان تشكيلي قد يستطيع الدمج بينهما في رسم لوحة مناسبة. سخر من نفسه وهو يفكر ويهذي بتفكيره. شعر بأنه يعيش بالأحلام أكثر من عيشه بواقعية مع الظروف والواقع. انتبه إلى أنه يجب عليه أن يعيش لحظته وعطلته الربيعية مع صديقته الجديدة فاتي، بدل أن يبقى في هذيانه. لكنه مقيد ومسكون بالتماهي والتقليد والتجسيد لمتخيله.

ضغط حميد على صفحة الهاتف واسم سعاد أكادير المبرمج والمسجل فيها:

ـ ألو، مساء النور، لقد وعدتك بالاتصال قبل أن ننام. كيف أنتِ الآن؟ أتمنى أن تكوني قد أخذت حماما واسترحت من تعب هذا اليوم وحرارته.

ـ بالفعل هذا ما قمت به، في الحقيقة لقد سرني التعرف عليك واتصالك بي وأنساني ثقل الهموم التي كنت أحمل في صدري. شعرت أن غيوما قد انقشعت من فضاء ذهني بفضل الحديث الذي جرى بيننا.

ـ هل أنت نائمة أم ما زلت مستيقظة؟

ـ ما دمت أتكلم معك الآن فأنا مستيقظة. أجابته بنبرة مداعِبة. أخذتُ حماما وأتصفح مجلة لكي أستدرج إغماض جفوني والذهاب في نوم عميق. أين أنتَ الآن؟ أما زلت في الساحة خارج الفندق لم تنم بعد؟

ـ أنا بجوارك، مطل من الشرفة على مسبح الفندق ونخيله، هل تقبلين ضيفا في ساعة متأخرة؟

اندهشت سعاد واستغربت وانبهرت لمبادرة حميد الجريئة والشجاعة. كما ابتسمت في دواخلها لوجود من يقدر على هذا التعلق والإبداع في التواصل.

ـ صحيح ما قلت؟ أنت خطير أسيدي – بعامية غير رافضة للمبادرة والفكرة، عبرت سعاد عما أخبرها به حميد.

ـ لا تعتبري تصرفي عيبا، أتمنى ذلك، فقط ارتأيت أن أكون بجوارك حتى يسهل لقاؤنا وتعارفنا.

...

لقد جعل السارد هنا قوسا جديدا لكي يناقش إشكالياته التي اعترضته حين الكتابة والنشر. تواصلت معه بعض الصديقات حين قراءتهن لهذا الجزء المنشور على صفحات موقع ابتسامة. كان كل مرة يرسل لهن رابط الكتابة الجديدة إلكترونيا ويعقبه تفاعل ونقاش حولها. منهن من رفضن هذا التحرر المفرط، وهذه العلاقة التي سيقدم صاحبها على ممارسة الجنس في اليوم الأول من تعارفها، بل في الساعات الأولى من حصول ذلك. لم يعترض على رفضهن.

يعلم أن الحكاية هي برواية حميد وليست بروايته هو. لم يخبرهن بأنه سيجرؤ على تحقيق ذلك في نفس الفندق، رغم أن تواجده مع فاتي هناك جعل كل واحد منهما في تباعد بين الغرفتين. برّر سرده بكون الواقع لا يرتفع. هناك من يعيش بثقافة تحرر مماثلة في مجتمعنا ولا يجب علينا رفض حقيقة وقوعها. إلا أنه تفهّم نسبيا موقفهن. من يبحث عن علاقة بمعايير أخلاقية مغايرة، أو عن مشروع زواج وليس عن مغامرة جنسية، سيرفض مثل حكاية حميد. لكن اللوم كان على السارد، وهو يعلم في دواخله بأنهن يلمنه بافتراض أنهن لن يقبلن منه إقامة علاقة لأول لقاء لهن معه. تعقيدات كثيرة اختلجت ذهنه وكتابته وتفاعلاته. عليه أن يمضي قدما في جرأته وقصته:

...

ساد صمت لثوان قليلة. ومعه كان التفكير في القرار وتطوير التعارف. وكم يشفع السفر للحاضر فيحرره من قيود الماضي ويعطي لكل حلم فرصة التحقق، وللرغبة فرص التلبية بعيدا عن مراقبات الأعراف والتقاليد والقيم الجماعية المكبلة والقامعة لمتطلبات الذات. هكذا غلبت الرغبة في متعة الحياة على فكر حميد وسعاد، ولو أنها ستكون مجرد قوس مفتوح ربما سيغلق في لحظة ما أو مع العودة من السفر والانتهاء منه. لكن، فلنعش داخل السفر ما دام مفتوحا ومحلِلا ومبيحا. لننعم بما يتيحه لنا السفر.

فكرت سعاد في المفاجأة:

ـ اسمع اترك باب الغرفة مفتوحا. هي 27...؟ أوكي.

ـ نعم 27، سأنتظرك.

ـ سألتحق بك بعد قليل.

كم يشفع السفر للحاضر فيحرره من قيود الماضي ويعطي لكلِّ حلمٍ فرصةَ التحقق، وللرغبة فرص التلبية بعيدا عن مراقبات التقليد والأعراف والقيم المكبلة. هكذا غلبت الرغبة في متعة الحياة على فكر حميد وسعاد، ولو كانت قوسا مفتوحا سيغلق في لحظة ما، فلنعش داخله وننعم بما سيمنحه لنا. هكذا فكرت سعاد في هذه المفاجأة قائلة:

ـ اترك الباب متبسما. سألتحق بك بعد قليل في غرفتك.

فكر حميد في تبرير آخر لمبادرته:

ـ لا تعتبري تصرفي عيبا، وأتمنى ذلك، فقط ارتأيت أن أكون بجوارك حتى يسهل لقاؤنا وتعارفنا.

لكنه لم يرد التصريح به. ترك هذا الكلام إلى تداعيات التجاذب بينهما. وهو يعلم أن الأنثى ترغب فيمن يُقْدم على ما ترغب فيه النفس دون تعقيد، لأن ذلك يحيي الممنوع والأخلاقي. فلنفتح القوس إلى المباح والإنساني.

لابد للأنثى أن تستعد ولو لثواني مع نفسها وذاتها حتى بخطف نظرة أمام المرآة. ارتدَت سعاد قميصا خفيفا غطى بالكاد كتفيها وركبتيها، ووضعت عطرا بجانبي

جيدها، بعد أن تيقنت من أن حمامها لا يزال جسدها ينعم برائحته الطيبة. عاودت الوقوف أمام المرآة التي تعتبر ظل الأنثى الذي يؤكد حضورها ورشاقتها. تسللت من غرفتها إلى الغرفة المجاورة 27. هل فعلا أن ما يجري الآن واقعي وفعلي؟ هل فعلا هو موجود في الغرفة 27؟ ترى لو كانت مجرد مزحة وصادف فعلها انفتاح باب تلك الغرفة؟ أي موقف سيكون؟ طردت كل هذه الأفكار، وواصلت خطوها بهدوء ودخلت إلى الغرفة 27، فوجدت حميد واقفا ومستقبلا بابتسامة جميلة ونظرة كلها إجلال وترحاب، وكأسه نصف ممتلئة بين يديه.

لقد كان اللقاء الأول في المقهى حادا ومحرجا ومروضا وحشَ الإنسان ليتواصل مع إنسان آخر. أما الآن فقد تم السلام بعناق خفيف تجلى في وضع كل طرف يده على كتف الآخر خاطفا قبلات السلام الجانبية وفي إفاضتها دليل قبول متبادل. رحب حميد بضيفته ودعاها لاتخاذ الكرسي للجلوس أو جانب السرير غير متسرع لفكرة ما.

ـ اسمحي لي على هذه المفاجأة، فمنذ التقيت بك لم أرغب في الابتعاد عنك خلال إقامتي بمراكش.

تنهدت سعاد لكنها طردت آهات حسراتها المتراكمة بابتسامة وديعة تبدي ثناءها على مشاعر حميد وتعبيره. وهو مهيمن على الموقف والمبادرة والابتسامة متحكمة في نجاح كلامه، تابع قائلا:

- هل ترغبين في تناول كأس معي؟ ليس لدي الآن شيء آخر أقدمه لك سوى ما أتناوله أمامك.

- في الحقيقة أرغب في ذلك ولكن هذا النوع صعب على معدتي تناوله. ناولني قليلا منه في كأس فقط واجعل نسبة الماء كثيرة حتى أستطيع تجرعه.

تجاذبا أطراف حديث هامس وخفيف وأصبحت الحميمية هي السائدة فيه، خصوصا وأن الإنسان كلما اقترب من الليل ومن جسد الجنس الآخر ومن النوم والفراش، ازدادت ميوله نحو تحقيق رغبة الوجود ورغبة كل المخلوقات،

وتحقيق التواصل البيولوجي والروحي معه. في الحقيقة يصعب الفصل والفرز بين هذه الميولات. هكذا استمرت المداعبة والنكتة والضحكات الخفيفة الخافتة. واقترب الجسد من الآخر، ومع كل كلام حلو، بادر حميد إلى لمس رفيقته بجانب كتفها، مع خصلات شعرها المنفلتة على خدها أو جبهتها، مع تكرار محاولات اختراق يدوي داخل غابات شعرها المنسدل على الكتفين والظهر. وهي مع كل لمسة تبدي الشعور بدفء في الملمس والحنان في الاقتراب والرغبة في الاندماج والعناق. الاندماج؟ في أي اندماج سترغب؟ أين هو التمنع؟ والموقف السابق في المقهى؟

بعد اقتراب الطرفين وبداية قُبل خفيفة يذوب معها الكلام وتغمض لها العيون للحظات كأنها تأذن بجواز مرور الفعل إلى ما يشاء، توقفت سعاد وأمسكت نصف متراجعة بوجهها مبتسمة في شبه اعتراض بوضع كفها على صدره:

ـ حْشومة، من أول لقاء.

ـ لا نحتاج إلى أول لقاء؟ فنحن متعارفان من زمان ووقت بعيد في الماضي، فقط لم يكتب لنا التلاقي. كأنني أعرفك منذ سنين. لم أتفاهم مع فتاة مثلك بعقلك وشخصيتك بقدر ما تفاهمت معك. أنت معي الآن وهذا يكفيني.

وضعت خدها على كتفه تعبيرا عن رضاها واغتباطها بجميل تعبيره. لقد أذاب الكلام جليد التمنع والتردد، واستمرت اللمسات المخترقة لكل جوانب الجسدين، واستمر الاحتكاك واشتعلت نار القبل من جديد، هذه المرة بدأت الأزرار القليلة تنفتق وامتد الجسدان فوق الفراش في حلول جديد كله رغبة وعشق متعة. سحقت آهاته التحجرات والتحسرات التي احتقنت منذ بداية صباح هذا اليوم في صدر كل واحد منهما، فكانت الولادة الجديدة للعلاقة والشعور المتبادل والرغبة في مراكش والإقامة فيها. ولكن لا أحد منهما كان يظن سرعة حصول هذه التطورات والمستجدات. هي أرض أحلام أو جنة أنام أو مشفى المكسورين والمجروحين في المشاعر والقلوب. هي مراكش، أرض الحلم والسفر والرحلة إلى... قد تكون جنة، وقد تكون دواخل الروح والوجدان.

بقيا ممددين فوق السرير بعد استكمال الرغبة، وجعلا إزارا على نصف جسديهما العاريين، واستمرا في عناق حميمي بدون حاجة إلى كلام جديد، ما دامت لغة الجسد قد هيمنت واكتسحت. ذهبت الجفون في إغماضة سبات مريح من تعب سفر هذا وتجوال هذين. حتى جاء صوت بعيد في ممر من ممرات الفندق أخرجهما من جنتهما، وفتحت سعاد عينيها ململمة حميد، فطلبت أن تذهب إلى غرفتها في هدوء شديد واستئذان لطيف. عناق خفيف كان معه الطرفان ناهضين. ارتدت ملابسها الخفيفة ووضع هو فوطته على نصف جسده، وفتح الباب، مطلا على الممر، فاسحا المجال للمغادرة. أشارت بسبابتها على شفتيها بتحري الهدوء والصمت. حتى إذا دخلت غرفتها وأقفلتها بهدوء، عاد حميد إلى سريره راضيا عن يومه الجديد مسترخيا بلطف، كأنه حقق خلاصَه من همّ قديم ومفتاح سعادته الجديدة.

ذهب في نوم عميق ساعدته الكؤوس التي تناولها من قبل في سرعة الغوص في سبات أكيد. هكذا انقضى اليوم الأول من إقامته بمراكش. وبعد أن اخترقت أشعة الشمس غرفتيهما ونالا من نومهما ما يكفي لكل واحد لكي يستريح ويبدأ نهارا جديدا، كانت بداية اليوم الثاني من السفر الحلم. لم يصدقا بعدُ متعة اللحظات التي وهبتها مراكش لهما. هكذا أصبح هذا الشعور متبادلا ومتقاطعا رغم افتراق الجسدين كلٌّ في غرفته:26 -27.

...

قامت القيامة، ولم يعلم السارد سبب ذلك. بمجرد نشره لهذا الجزء من الرواية في مدونته، وتقاسمه مع معارفه وخليلاته كما مُتتبِّعاته، بدأت التعاليق بل المكالمات الهاتفية رغم انتصاف الليل واستعداد الأنام لتوديع يوم سابق. كان رفض بعضهن لهذا التسرع. كان رفض تناول سعاد لكأس ومشروب مسكر. كان على القصة ألا تجعل هذا المشهد يقع إلا بعد مدة يتم فيها التعارف ويتأكد فيها الترابط الصادق.

تأمل السارد مليّا ما يقع. تفهّم الردود وحاول التبرير. اعتبر كل ذلك امانة في الحكي لما سمعه من حميد، الراوي الحقيقي للقصة. رفضت صديقة السارد سلمى مبروك كل هذا. هي الفنانة التشكيلية والموسيقية البارعة في العزف على آلة البيان. قصة السارد معها التقى فيها خيال بخيال، وحلم بحلم. ربما سيؤجل الكشف عنه والحديث حوله لأنه يستحق رواية مستقلة وجميلة، تجلّت فيها أشكال إبداع متقاطعة ومتبادلة في التأثير بين وبينها: السارد وسلمى مبروك.

تأنى في إصدار تفسير نهائي لردود سلمى. احتاج لفسحة زمنية وذهنية حتى يفهم هو الآخر سبب هذا الرفض:

ـ اسمع! يمكنك أن تعيد صياغة هذا الجزء وتؤجل المشهد الإيروتيكي بعد حين. ما رأيك؟

سبق أن ذكر مبرراته، لكنه الآن يريد أن يفهم ويفسر سلوك سلمى. لابد له من تسلح بتحليل نفسي مناسب. سلمى كقارئة ومتلقية. سلمى كصديقة ومتابعة ومشاركة في التخيل والإبداع الذي يقوم به السارد. كم أهدى لها وكم كتب من شذرات شعرية. كم أسمعها من النصوص التي يكون قد انتهى من كتابتها لتوه وحينه، فتكون المخرج الثاني للقصة والمقطع والنص. إنما هنا، بدت معارضة. من زاوية التحليل النفسي الذي تسلّح به، فسّر ذلك بأنها وضعت نفسها مكان سعاد، بل أرادت أن تكون في رحلة مراكش مع السارد لو تحقق لها ذلك. خيال السارد ما هو إلا مطية لما يجب أن يكون بينهما. عليه أن يجعله موافقا لما يمكنه أن يتحقق في الواقع بينهما. أسلحة سلمى مبروك الأخلاقية والتربوية ما هي إلا تغطية وقناع. قناع الرغبة المكبوتة. رغم أنه برّر لها وقوع ما وقع بوجود لحظات تضعف فيها تمنعات الشخص، وترغب في تحقيق أمنيات النفس وأحلامها: الدهشة، المفاجأة، السفر، الليل الوحيش والموحش في دواخل الذات والذي ينادي الأعماق وغرائزها.

ما لم يقلْه لها ويقحمه في رده راودَ ذهنه. شريط غريزة أساسية (BASIC INSTINTC) وشخصية سارون سطون فيه. كان تلك الجرأة الجنونية التي تحكم بنية القصة ككل.

حاور نفسه وهو يفكر: كفاك هذيانا أيها الأحمق. عُدْ إلى متن قصتك وروايتك. عدْ إلى حميد وسعاد!

...

رغم استيقاظها الباكر، لم ترغب سعاد في مغادرة الفراش. بقيت ممددة على جنبها، ضامة مسند السرير ومحتضنة له. عيناها شبه مفتوحتين، ورموش تقحم نور الصباح المشع من الشرفة في جفنيها. فجأة انبلجت ابتسامة مع امتداد ساقيها واستحضارها لصورة حميد الصديق الجديد الذي قام بدور الفارس المقتحم لجلستها في المقهى وفجأة في فندقها. رغم مرارة غدر الرجال وانعدام الثقة الذي تسببه، لم يكن هناك وجود لمبرر في رفض العلاقة مع حميد. فرغم كل شيء يبقى الرجل مكملا للمرأة. ربما لم تفكر سعاد هكذا. لكن، بدا الأمر كذلك حين أخذت هاتفها المحمول مرسلة عبره رسالة مكتوبة تحمل تحية الصباح مصحوبة بباقة ورد مصورة على شاشة الهاتف.

ما يزال الرأس مثقلا بوقع الكؤوس وجهد اليوم الأول من السفر والسهر. بينما الجسد مستلق على ظهره فاتحا أطرافه الأربعة في كل الجهات من السرير، راغبا في استمرار الامتداد والنوم، اخترقت أذني حميد رنات تلك الرسالة الهاتفية المكتوبة بتدرج، داعية إياه لمد يده لالتقاط الهاتف المحمول. لكن، لابد من فتح العينين ومواجهة ضغط الأشعة الصباحية مع أول استيقاظ، من أجل قراءة مصدر الرسالة وفحواها. بدا اسم سعاد – أگـادير، على شاشة المحمول. لم يكن ليترك شوق القراءة لمضمون الرسالة والرد عليها بأجمل ما استطاع رقنه على هاتفه. رد التحية بالتحية، باحثا عن رمز أكثر شاعرية (ظل رأسين لفتى وفتاة متقابلين مقبّلين) رمز العشق والقبلة الصباحية الجميلة. هكذا جعل تقديره لاجتهاده. مع إضافة:

ـ لنتناول الفطور معا بعد نصف ساعة.

لم يتأخر الرد:

ـ حاضر عزيزي، نلتقي في باب الفندق.

هكذا أصبح أسلوب سعاد عذبا وملبيا. لم تشأ أن تجعل فطور الصباح داخل مطعم الفندق ومقهاه حتى تدفع بعيدا تساؤلات المستخدمين حول سر الرفقة من أول يوم، خصوصا من طرف المكلف بالاستقبال. تعلم أن المجتمع له قيم ترفض، وممارسة

تجعل كل واحد يتناقض: حلال علي حرام على الآخرين. 'اطلع تأكل من الكرمة انزل شكون لي قالها ليك'، (اصعد لكي تأكل من شجرة التين، انزل من قال لك اصعد؟ ممنوع. الذئب حلال، الذئب حرام....). والتناقضات كثيرة تملأ العلاقات. أقنعة خارجية وأخرى داخلية لا تعرف حقيقة الأمور معها، ولا تعلم نوايا كل واحد فيها.

الكل يعلم أن الإنسان يرغب ويفعل ما يلبي أغراضه الداخلية عموما، ولكن من وضع القوانين المنظِّمة للعلاقات الاجتماعية فرض تقنينا لها حتى لا تسيب الأمور وتبقى تحت مراقبته. هكذا تملأ التناقضات حياتنا بين الشرع والقانون ومتطلبات العيش والحياة ورغباتها. ولكن لا أحد يريد الاصطدام. دع كل شيء يمر دون تساؤل ودون توتر أو لوم، وأغمض عينيك عن كل شيء حتى لا يواجهك رفض أو جدار أو كسر أو زجر. هي ذي خواطرها التي لامت بها مجتمعها وثقافته.

مع نغمات عبد الحليم حافظ:
(قولوا له، قولوا له: أحبه
وأذوب في حبه
قولوا له، قولوا له الحقيقة
آه ذي عيون
غريبة...).

ملأ اللحن الجميل فضاءها أكثر من فحوى كلماتها. مع نغمات عبد الحليم كانت سعاد تأخذ حمامها الصباحي، جاعلة صابونها المفضل ذا الرائحة الخاصة والطيبة على كل جسدها، معاودة ذلك مع كل رشات الماء المنسكب عليها. ولا بد للقاء بين العشاق من أن يكون بأجمل الثياب والرشاقة والابتسامة والكلام الجميل المثير والمدخل للبهجة على الطرف الآخر في بلد البهجة والدقة المراكشية.

اتخذا اتجاه المقاهي الجميلة في جليز، واقتحما إحدى صالونات الشارع الرفيع طالبين فطورا مكتملا بما اشتهته الأنفس وبما يطفئ نار الصيف والعشق الملتهبة.

بعد الانتهاء من الفطور أحضر النادل فنجاني قهوة صباحية تفتح عيون العاشقين من جديد. لا زال أثر السهر على جفونهما. جعل حميد مقدار السكر المناسب في كوب سعاد وحركه بملعقة صغيرة وقدمه لها، مع نظرة معبرة وراغبة في كل سعادِه هذه. بدا من إثارته رضاها وقبولها وابتسامة في عينيها ترغب في تقبيله وفي حلول واختراق جديد. لكن المجال يفرض المسافة واللباقة وحدًّا لكل لمسة أو همسة.

استرسل الحديث بينهما حول الفضاء المحيط بهما في المقهى:

ـ هذا مقهى جميل في جليز، لأول مرة أجلس فيه.

ـ وأنا كذلك، أجابت سعاد.

ـ من المفروض أن تكون المقاهي كلها بديكور جيد مثل هذا.

ـ حينما تأتي لأكادير ستجد عندنا مقاهي مماثلة، بل أفضل ورائعة تنسيك في هذه.

هكذا بدأ التحدي في مزيد من الاكتشاف واللقاء لأمكنة متعددة: مراكش ـأكادير ـ الصويرة...

بدأ الحديث عن الرغبة في سفريات مشتركة. كلها تعابير تعطي تزكية للحظات الحاضر وتزيدها قوة في الارتباط وتماسك اللقاء.

بدأت سعاد تلملم ملف صديقها الجديد، وهي المرأة الفتاة التي لابد لها أن تعرف المحيط الأنثوي والأسري لصديقها: الأم، الأخوات، الأب. هل من متزوجات داخل الأخوات. إنها تضع بأسئلتها ذاتها داخل فضائه الأسري الشرعي تعويضا عن الرغبة في أن تكون لها أسرة وأن تكون أمّا لها أولاد وزوج وعائلة قريبة وكبيرة وصغيرة وبعيدة.

لم تكن هذه التعابير لتترتب داخل ذهنها بوضوح، لكن بعضها أكدته تنهدات خفيفة أذهبتها من ملامحها بتناول جرعات من فنجان القهوة أمامها أو كوب الماء أو نظرة في اتجاه المرايا المتعددة التي تزخرف جدران المقهى، محولة التنهيدة مع كل التفاتة إلى ابتسامة جديدة.

كانت أجوبة حميد صريحة بدرجة جعلت سعاد ترتاح لها وتفتح صدرها للحديث عن خصوصيات حياتها وعلاقاتها الأسرية، وهي التي تفتقد الأب والأخ والأم، لا يمكن لوجود العم أو الخال أن يعوض وجودهم. ارتاحت أكثر لتواضعه في حديثه عن نفسه ودخله الشهري العادي الذي لا يكفي لحاجيات العصر المتصاعدة، ومساعدته لأسرته في متطلباتها الحياتية ومحنة الموظف مع تفتيت ذلك الدخل الزهيد بين هذا وذاك من المستلزمات. تحدث معها عن تجربته في الخطبة التي لم تكتمل، ومشاكله في العمل التي لا تعجبه. كلها تصريحات جعلت

شخصية حميد أكثر بعدا عن المجاملة والنفاق أو التغطية عن عقد النقص التي تصيب وتطبع شخصيات نماذج كثيرة داخل مجتمعنا. لم يحتج لإبهار سعاد وإيقاعها في غرام أوهام تشدها إليه أكثر. فقد وجدها بدرجة نضج وترفُّع أغناه عن السقوط فيما ينتقد به غيره من نماذج داخل المجتمع. تكلم كذلك عن براعته في الغناء والعزف، ومشاركته مع جوق في إحياء المناسبات، ما يحقق له دخلا إضافيا يواجه به تكاليف الحياة.

استسمحت سعاد في الانصراف واعتذرت عن البقاء وجعلت موعد اللقاء مع غروب شمس هذا النهار المرتفع الحرارة. لديها التزامات هاتفية وأمور خاصة تريد التفرغ إليها، حتى تستعد ليوم مراكش الليلي الذي تعيشه ساحة جامع الفنا حيث لا تغلق الجفون ولا تنام العقول.

استحسن حميد رأيها وتركها تودعه بدون تلاق أيدٍ، مادام اللقاء سارٍ في المساء. لم يتركها تخرج نقودها من حقيبتها، بل لامها بشكل ظريف على ذلك. مما جعلها تنصرف شاكرة تصرفه. لا يرضى هو أن يتخلى عن دوره الرجولي الساهر على شؤون فتاته رغم كونها أحسن حالا ماديا منه. والشعور متبادل. مع رفضه أداءها ثمن وجبة الفطور المشتركة شعرت سعاد بعدم طمعه في مالها. في جسدها وشخصها نعم، لكن السقوط في الطمع المادي في أي علاقة، لا.

إنه السفر الذي يعطي الثقافة الجديدة للبشر، فيحرره من قيود الفِكَر.

ـ إلى اللقاء

ـ إلى اللقاء في المساء، سأكتب لك رسالة في الهاتف المحمول على الساعة السابعة مساء. مناسب؟

ـ نعم مناسب جدا. هكذا كان جواب سعاد قبل انصرافها.

...

(إنه السفر الذي يعطي الثقافة الجديدة للبشر، فيحرره من قيود الفِكَر)، تأمل السارد العبارة. وجدها مناسبة لذاته كذلك. فكر في فطوره الذي تشاركه مع فاتي في

مطعم الفندق. لم يخرجا منه بعد. فكّر في ليلته التي قضاها معها. هو الآخر تسلّل من غرفته والتحق بها في غرفتها. وقع عكس ما قام به حميد. لن يدخل في وصف ما وقع. يكفيه ما وصف به لقاء حميد وسعاد. الآن، سيستعد مع فاتي هو الآخر ليوم جديد.

...

تناول حميد سيجارة وأشعلها بحركة يديه مُبديا تحكمه فيما يجري. استدار قليلا بكرسيه تجاه التلفاز الموجود في زاوية قريبة لمتابعة أخبار الحادية عشرة على قناة خاصة بالأخبار باللغة العربية. إنها قناة الجزيرة التي أصبحت تجذب إليها المشاهد العربي، والتي أخرجته من قوقعة الجهل بمجموعة أمور تجري حوله في العالم، لكن بالمقابل وضعته في حيرة تناقضات العالم وأبدت عجزه عن فك ألغاز القضايا العربية والدولية والإسلامية. من الصعب معرفة الخيوط المتحكمة والموجهة للرأي والموقف، ومعرفة الحقيقة إلا تلك التي يصوغها الإعلام بما تريده سياسة الإعلام.

لقد أبدى الاهتمام والاحترام للمادة الإخبارية. ركز على مشاهدتها ولم يستدر أو يلتفت للنظر إلى من أو ما حوله. كلها تعابير عن فردانية ممتلئة وملبية لمطالبها. إنه كمال خلَقه السفر وتجربة القدر.

ـ من سيشاركني في هذه النشوة والسعادة التي أشعر بها؟ هكذا حاور نفسه وفكر في مكالمة صديقه عزيز في مدينة مكناس.

ـ ألو، أين أنت يا قصب الريح. كانت هذه كلمات مداعبة وتسلية بين صديقين. فقد كان عزيز نحيف الجسم دقيق النظر بعينين مركزتين. إنها صداقة حميمة اشترك طرفاها في تجارب وعشرة عمر منذ الصغر. كان عزيز قد ابتعد لفترة عن حميمية هذه الصداقة، وذلك لانخراطه في جماعة إسلامية، ارتأى فيها خلاصه من بؤس الدنيا وبحثه عن طهارة داخلية وتَبرُّإٍ من هذا الواقع المليء

بالنواقص والتناقضات، باحثا عن سعادة أخروية تعوض عن كل ما انتقده، عن بداية خلاص من حسرة الحياة التي تؤرق بمجهولها وعماها.

ـ من؟ الدب القطبي! ألم تذب شحمتك بحرارة مراكش الملتهبة؟ كيف هي رحلتك؟

ـ لقد بدأت رائعة وجميلة. التقيت بفتاة مناسبة وتم التواصل والمعاشرة منذ الليلة الأولى.

ـ صحيح؟ سأخبر أمك حتى تقتلعك بمخالب طائرة عسكرية من مدينة مراكش. أنت سائب في الأرض الآن. المراكشيات خطيرات، انتبه!

ـ ألم تسافر بعد يا قصب الريح؟

ـ أنت تعلم أنني مرتبط بجمعيتي في ورش دولي سيأتيه اليوم وفد أوربي من الشباب يضم فرنسيين وبلجيكيين.

ـ أصبحتَ عضوا في الأمم المتحدة، هل أنت "كوفي عَنانِها"[2]؟

ـ كفاك مزاحا. متى ستعود؟

ـ لا يهمك هذا، ابق في ورشك وسأعاود الاتصال بك فيما بعد. لِنَرَ إن كنت ستتعرف على أوربية جديدة؟ أرِني براعتك وحنة يدك.

ـ طيب إلى اللقاء وتمتع بشهيوات جامع الفنا وبطنجية ميدومة وسلّم على صديقتك، كان الله في عونها معك.

ـ إلى اللقاء يا صاحبي.

أقفل حميد الخط بكلمة صاحبي مجددا بها وثاق صداقة عزيزة مع عزيز عليه هو عزيز أو قصب الريح كما يسميه. لقد كان عزيز قاسيا على نفسه وعلى علاقاته حينما دخل إلى جماعته. أما الآن فقد أصبح أكثر تسامحا وليونة. كيف كان يستنكر كل حديث بين فتى وفتاة، وأصبح الآن يرافق الأجنبيات في صداقات نوعية!

[2] نسبة إلى كوفي عنان الذي كان أمينا عاما للأمم المتحدة من يناير 1997 إلى دجنبر من سنة 2006، خلال فترة وقوع القصة.

لم ينس حميد يوم جاءه عزيز ساخطا وغاضبا ومصدوما من تصرف إخوان الجماعة معه حينما قرروا مقاطعته لمدة خمسة عشر يوما، وعاقبه زعيمها بعدم تكلم أحد من الجماعة معه، وتكليفه بقراءة أربعة كتب خلال هذه المدة من الحصار. قد استغرب عزيز لعدم تقديرهم لظروفه المادية لمّا طلبوا منه إحضار قدر من المال لم يكن باستطاعته التوفر عليه، وهو الطالب الذي لا يجد حتى ما يشتري به ما يحتاجه من كتب.

لقد دعوه إلى اجتماع بأحد منازل أفراد الجماعة. تكلم زعيمهم المحلي بعد البسملة والدعاء وإخلاص النية قائلا:

ـ لقد اجتمعنا أيها الإخوان لننظر في التصرف الذي صدر من أخينا عزيز والذي لم يلتزم فيه بأوامر الجماعة وواجب طاعتها. وقد قررنا مقاطعته لمدة أسبوعين وتكليفه بقراءة هذه الكتب لعله يستفيد منها آداب الطاعة والالتزام.

لم يُبدِ عزيز أي رد فعل، وهو الهادئ دائما، المبتسم باستمرار. ابتسم هذه المرة، لكنها كانت ابتسامة بضغط على الشفتين وبِريقٍ مُرّ ابتلعه. انصرف بالكتب، وفي الطريق شعر بالانسلاخ عن الجماعة، محاورا نفسه:

- أين هو تقدير الظروف المادية والاجتماعية للإنسان؟ ألا يكلف الله نفسا إلا وسعها؟ لقد أمروني فيما سبق بقطع العلاقات حتى مع أعز أصدقائي، وحتى مع ابن عمي، فقط لكونه يلج حانات المدينة. أمروني بترك التفكير في النساء حتى ولو كان تعارفا فيه شعور متبادل بألفة واحترام. وأنا الذي يرى في حديث الذكر والأنثى بُعدا شريفا يتآلف فيه البشر بعضهم مع البعض الآخر، ويتلاقح فيه التاريخ والبشر. أ فبعد انعزالي وابتعادي عن العلاقات الاجتماعية التي تربيت في أحضانها، قاموا باستئصال ما تبقى من تواصلي الآدمي والاجتماعي، والكل يعلم بأن الإنسان اجتماعي بطبعه. ألم يقل الله تعالى: (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا)؟ مع من سأتواصل الآن؟ هل سيقبل معارفي القدامى رفقتي بعد أن كنت أنا من اختار إبعادهم؟

وهو في سيره بين دروب وأحياء المدينة، اختار أن يطيل الطريق واحمرت عيناه للحظات لم يوقف دموعها إلا توجيهها لأشعة الشمس الحادة والقوية. أرادها شاهدة على ما وقع. ربما نورها أفضل مما هو غامض وما هو فيه حائر الآن.

امتلك حدة مشاعره الهائجة كأمواج البحر والمتفجرة كحمم البراكين وتحكّم فيها، وفكر في صديق دربه وطفولته الذي يشاطره السلام والود. كان يعلم مقهاه المفضل الذي يرتاده بعد العمل.

تأنى بخطوات أمام باب المقهى قاصدا ببصره صديقه القديم حميد، وبإشارة يد ناداه، لأن ضجيج الزبائن لن يسمع صوته.

خرج حميد عند صديقه عزيز وكلّه استعداد للتواصل وقضاء ما يحتاجه من أمور.

ـ سآخذك من مجلسك بالمقهى لنتمشى قليلا.

ـ ما من مشكلة، فقط أسدد ثمن القهوة وننصرف.

ـ طيب.

بعد سؤال عن الحال والصحة والمناخ والأسرة، استمر عزيز برغبته في الحديث، مريدا تفجير القنبلة النفسية التي صنعها الآخرون في دواخله، حتى لا ينفجر عقله بها. حكى له ما جرى. كان رد حميد على القصة معادلا ومماثلا في التعامل:

ـ إذا قاطعوك قاطعهم أنت كذلك. من لا يراعي ظروفي فلا أعتبره يفكر في مصلحتي. هل سأذهب للسرقة لإحضار النقود؟ هل الحلال يتم بالطرق الحرام؟ ما هذا الذي يتصرفون به في كلامهم وفعلهم؟

وجد عزيز كلام صاحبه مفتاحا سهلا للتخلص من همه.

ـ معك حق فيما تقول، وحتى لو كانت مسألة الطاعة فهي لله تعالى لا للبشر، وهم بشر، وما من مقدس سوى الله. وهم يريدون تقديس البشر.

فجأة، فتح هذا الكلام في ذهنه طريقا لنقد شامل لتجربته مع أفراد الجماعة وقرر مع نفسه الانتهاء من مخالطتهم ومعاشرتهم. للغد ترك تلك الكتب ـ العقوبة عند أحد أفرادها والذي يعمل خياطا تقليديا في دكان:

ـ السلام عليكم، كيف الأحوال؟ هذه الكتب من فضلك سأتركها عندك إذا مر الأخ سعيد اعطِها له. سأعاود الاتصال بك فيما بعد، شكرا. السلام عليكم.

خلال المساء عاوده التفكير في ساحة الكلية والدور الذي كان يؤديه فيها. وكذلك صعوبة تأويل انسحابه أو على الأقل تجميد نشاطه مع الجماعة. لا زالت الأمور لم تحسم بكاملها في ذهنه. فجأة فكّر في مباراة ولوج المركز التربوي. لم لا؟ فدراسته في شعبة الإنجليزية ستساعده على النجاح ربما في مباراة هذا الامتحان.

هكذا كانت رحلة العودة إلى الحياة العادية والجنة الواقعية والشعور بالأحاسيس والتعبير عنها والصدق معها. ذلك أفضل ما يتمناه المرء في حياته وتلك سعادة الدارين. تسارعت الأفكار في ذهنه وتزاحمت ولم يكن يريد معها زيادة توتر. فالجنة جنات ما دام المرء سعيدا في داخله مرتاحا من كل هواجس تؤرقه. هذه هي الأفكار التي شغلت ذهن عزيز وجعلها تعويضا لما سبق من ارتباطات. إنه لم ينس ولن ينسى ذكر الله وإقامة الصلاة والاستغفار والحمد، ولكن، بينه وبين خالقه. لا يحتاج إلى وسيط أو مطهر أو مؤطر، ما دام الإيمان قوة روحية داخلية حية عند صاحبها. الآن، الحب لله والحياة وإن الله غفور رحيم. لن ينتظر الرحمة أو المغفرة من طرفين: الجماعة والله تعالى.

كان عزيز قد حدد موعد اللقاء مع حميد في المقهى في الصباح. وفي زاوية منها التقيا من جديد وتناولا الفطور معا، وعبر له عن كل الأمور التي راجت في ذهنه خلال الليل وهذا الصباح.

كم هي حاجة المرء إلى أمين سر وصديق يطمئن بمصاحبته ومصارحته بما يدور بداخل النفس ومشاعرها وتعرية واقعٍ أمامَه لإخراج ثقل حمَله في صدره. هكذا نوه بعلاقته مع صديقه حميد والعشرة التي بينهما، الحافلة بالذكريات أكثر.

تذكره لكل هذه الأمور جعل حميدا يفكر ويتمنى لو أن صديقه كان هنا معه بمراكش. كيف ستكون هذه اللحظات بالمناقشة والنكات والتعليقات بينهما على كل ما يلاحظ في هذا المحيط.

لكن حميد الآن له رفقة مناسبة هي سعاد. لن يراها حتى المساء. هذه فرصة لزيارة بعض المرافق والأماكن رغم الحرارة المرتفعة، وتناول الغداء والإسراع إلى الاختباء داخل الغرفة 27 والاستفادة من استرخاء واستراحة وربما قيلولة مع أخذ حمام ناعم بعدها. الجسم بمراكش يتصبب عرقا مع كل كوب ماء يتناوله الإنسان في هذا الفصل، ما بالك بالحركة والمشي فيه أو في ظله.

أصبحت الحافلات من جليز إلى ساحة جامع الفنا جيدة، بل منها ما هو مكيف الهواء. طبعا، المدينة سياحية وتحتاج إلى تجديدٍ وتطويرٍ مستمرين. ركب الحافلة قاصدا الساحة لا للفرجة، بل للبحث عن وجبة غداء مناسبة في ثمنها، والتجوال بين الدكاكين التجارية والبازارات والتواجد داخل ومع أناس من كل منطقة من المغرب وخارجه. يشعر الإنسان بهذا الانتماء العالمي الأوسع وهو يتقاطع مع الآخرين ببصره وانتظامه وحركته في كل ازدحام يخلقه ضيق الأزقة أو غير ذلك... كم من واحد منا يحتاج لتفريغ العزلة الداخلية في شعوره بهذا التجمهر البشري والمشي وسطه ذهابا وإيابا وبدون انتظام. إنه النوع البشري في تحققه الوجودي والتاريخي والآني.

...

تذكر السارد في هذا السياق ما قرأه عن الممثلة الأسترالية الشهيرة نيكول كيدمان. وجد تعبيرها معزّزا لفكرته، ما دام الحديث عن مراكش وانصهار الشعوب والثقافات فيها، كذا تذويب ضيق الفردانيات الذي يخنق أصحابها.

"صوّرت فيلما في المغرب... كان أطفالي معي، وكنا نقيم في خيام... عندما وصلت، شعرتُ بالذهول قليلا. ثم في النهاية، وجدتُ نفسي أتجوّل وأساوم في

الأسواق. أنا فخورة بذلك لأننا مواطنون عالميون، وتوفير هذا النوع من التجارب لأطفالي أمرٌ في غاية الأهمية بالنسبة لي".

احتاج السارد لإيقاف عقارب الزمن. نادى مدينة مراكش خلال ذلك:

ـ عليهم أن يجعلوا لك بطاقة هوية عالمية تُعطى لكل إنسان يريد أن يصبح عالميا في هويته.

وعلّق في سخرية مازحة على وضع حميد:

ـ لقد أصبحتَ يا حميد ندًّا لنيكول كيدمان في فلسفتها وفي سفرك كذلك.

لم يعد حميد إلى فندقه الجديد إلا حوالي الساعة الرابعة والنصف بعد الزوال. استغرقت راحته واستحمامه حوالي الثلاث ساعات إلى أن أيقظه من غفوته رنين الهاتف:

ـ ألو، مساء الخير، أين أنت الآن؟

ـ بجانبك يا سعادي، أنتظرك، هل أنت على استعداد للخروج؟

ـ نعم ربع ساعة وأكون معك بجانب الفندق.

ـ حاضر. استعدي لليلة بيضاء في مراكش الحمراء.

بين دوش ثان خفيف وسريع، وحلق ذقنه وارتداء القميص والسروال المناسبين للصيف والسهر، كان حميد على استعداد للخروج. وقف أمام المرآة بسرعة لضبط هندامه وتسريحة شعره.

المرآة!! كانت هي السبب في تأخر سعاد عن الخروج لدقائق معدودة. فقد أخذ منها الاستحمام والذهاب إلى صالون الحلاقة والتزين أمام مرآتها وقتا مناسبا خلال النهار. وها هي تعود أمام المرآة لتؤكد دقة أناقتها وتزيينها. لإزالة كل شك نفسي حقيقي أو وهمي حول كمال منظرها وظهورها. وحين خروجها بكسوتها المنفتحة بين ركبتيها في لونها الفستقي الفاتح، وشعرها المذهب اللامع بطلاقته واسترساله مع حركات الخطوات، كانت كل الأعين تستوقفها هذه الأنثى الجذابة، بل لا تكتفي بالنظر في حسن وجهها، إذ يستمر لمح البصر

والالتفات حتى بعد مرورها وانصرافها لرؤية شكل خطواتها وتموج ظهرها وكتفيها وأردافها... هكذا ثقافتنا تشتهي وتستمتع ولو بالنظر والتغزل البصري.

ـ تعلم يا حميد! الناس هنا تحب المرأة المكتنزة. كان الله في عوني وأنا أمر أمامهم.

يضحك حميد لملاحظتها الجريئة ويعقّب عليها بقوله:

ـ لا يهمك سلوك الناس. سأُرديهم بسهام نظراتي، خصوصا من سوّلت له نفسه استطالة النظر.

سُمِعت ضحكتها في المحيط، وما كان يهمها ذلك. هي في سفر، والكل في سفر. والناس يمتلكون حرية أكبر مع هذا السفر. المهم ألا تؤذي به أحدا أو تتعسف على خصوصياته. هكذا كان تبريرها الداخلي لحرية تصرفها الصادر عنها.

لكن حميد كان قد أنساه ما رآه من حسن وأناقة لم ينتبه لهما بالأمس أي شيء آخر. أنساه ما انتظره لخروجها ولقائها، بل فكر في اكتشافه غير الكامل لها فيما سبق من لقاء بينهما. نادى على سيارة أجرة صغيرة فاتحا لجميلته وسعاده ـ كما سماها ـ باب السيارة، وركب بجانبها مشبكا أصابع يديه مع يدها. كأنهما عروسان في شهر عسل ظريفان مهذبان أمام نظرات سائق السيارة الذي لم يترك فرصة دون استراق نظر للطرفين!

مع طول اتجاه السيارة في مسار الشارع، طلب حميد الذهاب إلى ساحة جامع الفنا، محج كل العشاق لليل والسهر والطرب والفرجة العجائبية في الإنس والحيوان وحتى الجن ربما.

فضّلا، يدا في يد، التجوال بجانب المحلات التجارية التقليدية والعصرية. ثنائي جديد يشكل وحدة عشق جديدة تخترق فضاء ساحة جامع الفنا وممرات أسواقها التجارية. حديثهما ارتبط بمشاهد المحيط والمسموع من الأغاني ونداءات الباعة وحلقات الفرجة، توقفاتهما كانت أمام محلات السلع التقليدية والبازارات. في معاينة للتحف والألبسة التقليدية والجلدية. على العموم فإن غالب الزوار لا يشترون إلا مع اقتراب مغادرة مراكش، حاملين شيئا محسوسا أو ملبوسا يشد

قلوبهم للحمراء ولياليها البيضاء وما جذب وجدانهم ومشاعرهم، حتى تستحضر الذكريات في كل مناسبة.

ـ لقد تفكرت أنه يجب عليّ أن أهاتف أسرتي، فهم قلقون الآن، لم أكلمهم منذ نزولي من القطار. لنذهب إلى مخدع هاتفي قريب.

وقفت سعاد بجانبه وهو يحدث أمه، وهي تتأمل الابن وطريقة كلامه مع والدته. بدت سعاد كأنها جزء منه يقف ملتصقا، واضعة يدها على كتفه، وهو بين تواصل الهاتف ولمس سعاده.

أي مقهى سيناسب الليلة الثانية بعد أكثر من ساعة من التجوال وتمتيع النظر بمفاتن ساحة جامع الفنا؟

لن تكون سوى المقهى المباركة التي جمعت العاشقين. لمَ لا، فلا بد من تجديد الزيارة لكل مكان مبارك. لقد كانت سعاد تفكر في زيارة مولاي إبراهيم، ضريح موجود بجبل قرب مراكش. لكن الحديث عنها لم يتم بعد، مجرد إشارة في الذهن سريعة، ما دامت مباركة المكان ـ المقهى تتقاطع مع زيارة الضريح المبارك كذلك. كم من مرة تأتي الأفكار المتشابهة متزاحمة في الذهن حتى إننا لا نعرف ما هي أولويات تفكيرنا.

هل سيتذكر النادل الزبونين؟ بعد التحية والسلام استأذنهما في المطلوب:

ـ نفس مشروب أمس من فضلك. هكذا أجاب حميد مجددا ذكر اسم المشروب، لعل النادل يستأنس ويحسن خدمتهما. يبدو أن العاشقين سيجعلان هذا المقهى البانورامي محجهما كل ليلة في مراكش.

سألت سعاد عشيقها عن برنامج يومه المنصرم كيف قضاه في غيبتها. وهي بدورها ذكرت تفاصيل أنشطتها وجعلت الحديث عنها مرتبطا بحمامها وتصفيف شعرها وتزيين ملامحها ولباسها، وإن كان كل هذا باديا ومناسبا ولائقا بجسدها ولذوق حميد كذلك.

شعر حميد بانغماره في بحر عشق ووجدان جديد. فعليه أن يكتشف ويرعى أعماق بحره ومكوناته، ويحسن السباحة فيه ويتغلب على أمواجه ومده وجزره.

أخذ تنهيدة جديدة فرضها الشعور والتفكير في غرقه الجديد. اقترب أكثر من سعاده حتى أصبح كتفه ملتصقا بكتفها. عيونهما منشغلة بمشاهد ساحة جامع الفنا الليلية. أيديهما متداخلة. آذانهما متلاحمة ومندمجة في حوار متناغم في صوتهما المخفوض والخافت وأفكارهما المتسالمة والمتكاملة. لا شيء يخلق اعتراض فكرة الآخر. فالسفر فرصة الجديد والتحرر من الأفكار القديمة واستبدالها بجديد أفضل ومريح للنفس والروح. عمّ صمت قصير، ارتفعت معه حرارة اليدين في تلامسهما، والكتفين في تواطؤهما. بدأ حميد في همس لحن جميل. كانت كلماته للشاعر نزار قباني (رسالة من تحت الماء)، وأغنيته التي يؤديها عندليب العشاق عبد الحليم حافظ. كل القلوب ستؤيد أداء حميد كيفما كان، ما دام رسالة من قلب إلى قلب:

...

الموج الأزرق في عيني

يناديني نحو الأعماق

وأنا ما عندي تجربة

في الحب ولا عندي زورق

...

ذهبت سعاد في غفوة غرام متكئة برأسها على كتف حميد... دام هذا الخشوع والشرود لدقائق عديدة. لم يعد للمحيط وجود، وحدهما كنقطة في فضاء كبير، سماؤه الآن فوق ساحة جامع الفنا، وبرجه سطح المقهى، ومركبه هذا السفر/ الحلم في العشق والحياة... ولا أحد له دخل أو فضول في معرفة ما يجري. الكل في تحرر من رتابة المجتمع ويقظته اليومية في حراسة كل التقاء بين جنسين ذكر وأنثى، وتتبع كل تواصل بينهما، حتى لا تقع النشوة والتفريغ الجنسي خارج إطار المراقبة وما تبيحه بالقوانين والتقاليد.

هكذا أصبح السفر حرية وسعادة لا يفكر المرء لا فيما قبلهما ولا فيما بعدهما.

بساحة جامع الفنا جلسا لاقتناء وجبة عشاء: حساء ساخن (حريرة) و"لحم مفور" وكأس شاي من نوع خاص. الكل يتسارع لتذوق شهيوات مراكش، والبهجة والكلام، والحب يحث على ذلك.

أي فرجة سيتمتع بها نظرهما وسمعهما؟ حلقات كثيرة، ازدحام هنا وهناك وقلة حضور قد تميز بعضها... هذه قصة حكيم الزمان، وأخرى لصراع الجن والإنس... وهذا منشط "حلايقي" يوقع بمستمعيه بالرد على أجوبتهم وتدخلاتهم، فيصبح فك اللغز مصيدة وقهقهة وتعبيرا عن ذكاء فائق. وقد تجد حميد وقد اتخذ له مقعدا مناسبا قبالة منشط الحلقة، وهو المولع بالنكت و(النقايم) كما تسمى تلك الجمل الملغّزة. مولع بفن الملحون أكثر، وهو الذي تربى في كنف ثقافته وطقوس احتفالياته. هكذا استأذن رفيقته:

ـ الألغاز أولا.

ـ أخبرتك ونسّيْتُك! خبّرتك وتلفتك. خبّرتك وبعد. خبّرتك ودابا؟ آش تختار؟ يا الفاهم ردّ بالك. إذا كنت ذكي شري حمارك...

تتعالى القهقهات، ويرفع حميد يده اليمنى طالبا الجواب وفك اللغز:

ـ آرى حالك (هات ما عندك). على أمر يتكنى بالسين، والسين ما هي سلسلة ولا سكين ولا من حروف البنّايا (البناؤون)، غير فكّها ولا نوض (انهض) من حدايا (جانبي).

يجيبه حميد، وقد اعتلت على محيا الحلايقي علامات التعجب بحاجبيه الكثيفين وشاربيه اللذين يغطيان شفتيه:

ـ واش ماشية أوْ لَّا راشية؟

وحينما عجز حميد عن الجواب قال:

ـ زدها في رأسك. هيهه.

أضاف له الحلايقي:

ـ حاجيتك وخبرتك على طبق ملح بات ما صبح!

ـ السماء والنجوم.

تعالت التصفيقات بين الحضور وقبّل الحلايقي رأس حميد وقال له:

ـ انهض. اجري طولك. حَجِيتْك على راهْ راهْ والغوت من وراه؟

ـ الشفار.

...

وإذا أردت الحركة فهؤلاء "أولاد موسى" في استعراضات رياضية جميلة. ترى أطفالا فيها في مقتبل العمر يشاركون برشاقة وجهد باديين. تتساءل معها حول الطفولة، أية طفولة أو تمدرس لهؤلاء؟ قد تتخيلهم كبارا حينما تلاحظ قسمات وجوههم وتلبيتهم لأوامر كبيرهم بما تحمله من طاعة وتبعية للقمة عيش.

تتغاضى عن كل ملاحظة تذهب بتمتيع النظر والترويح عن النفس، فأنت هنا للسياحة وليس لتغيير واقع اجتماعي بئيس. قد تكون أنانية المسافر الذي ينظر في طريقه إلى الأمام ولخط عجلاتها فلا يلتفت إلى الوراء أو الى الجانبين.

لن يكفيك تجوال في ليلة واحدة لتتبع كل حلقات الفرجة والمتعة بمراكش. اكتف ببعض منها لتترك مفاجآت جديدة لليالٍ أخر لاحقة. ويستمر ارتباطك بالعجائبي الخارج عن المألوف: ساحة جامع الفنا ملتقى الثقافات والحضارات، ملتقى القارات والشعوب، ملتقى التاريخ الماضي والحاضر. ملتقى الطبقات من المسحوق إلى صاحب آلات التصوير الرقمية والنظارات الشمسية من شارع شان إليزي les champs Élysées أو غيرها من شوارع الغنى العالمي... هذه ساحة جامع الفنا المليئة بالمزيد من المواصفات.

...

كانت هذه إضافات السارد طبعا. تداخلت الشخصيات وتداخلت معها المشاعر. احتاج السارد لكي يطعِّم رحلة حميد بهذه الثقافة وهذه الأفكار، حتى تصبح روايته دسمة. وكانت سلمى مبروك أكبر المجتهدين في تتبع تفاصيل الحكاية وهي تنشر وتُبعَث لها في الحين. زادُها وقوتُها منها، هذه الأفكار الغنية التي

يضيفها السارد لها. وكأنه يكتبها لها، ويجعلها في تغذية ثقافية تحتاجها لكي تستريح من شقاء عملها اليومي في إدارتها. على الأقل أصبح السارد يعلم بأن كتابته موجهة لقارئة ومتلقية أولى هي سلمى. عليه أن يراعي ذوقها ويكون في مستوى الجديد الذي تطلبه منه دائما. وقد تحاسبه مثلما فعلت مع ليلة العشق بين حميد وسعاد. وقد تحاكمه وتطلب منه سحب ما كتب، دعابة وبحثا عن زوايا في قلب السارد تريدها لها لكي تسكن فيها كمعشوقة وحبيبة.

عاشت فاتي واقع لقصة، وعاشت سلمى روايتها المكتوبة. كان اللوم من القارئة المتلقية. وكان عدم السؤال من طرف المتمتعة بسفر الحكاية الواقعي.

...

شاهد حميد وسعاد بعض اللوحات الخفيفة هنا وهناك. علقا متجاورين على ما ارتآه فكرهما، وقررا استبدال المجال الفني والشعبي بآخر تزخر به المدينة العصرية بمتاجرها الفاخرة ومقاهيها وفنادقها وحاناتها.

سيارة الأجرة، النملة السريعة التي تخترق كل ممرات الشوارع والأزقة، وتقرب لك كل بعيد بفضاء العروسة الحمراء. هذه جليز، وجلسة لمتعة الأذن بالطرب، وللعين بالرقص، وللشم والتدخين بنكهة الشيشا والسيجارة، وللذوق بنبيذ وأنواع خمور تذهب بالعقول إلى لا أدرية عبثية. وكل ما يساعد العقل على تحول من درجة وعي وتفكير إلى أخرى يتغير معها سلوك الذهن والحركة وتباح معها تصرفات ولمسات يحظرها المجتمع النهاري في كل تواصل تجمعي باستثناء هذا الفضاء الليلي.

تناول حميد بعض قنينات جعة، بينما اكتفت سعاد بواحدة. ورغم تناولها لها لم يبدُ عليها التشابه مع الفتيات اللاتي اعتدن يوميا على حضور هذا المكان. فقد بدا عليها طابع الضيفة المتحررة. ما جعل حميد يشعر أنه في أحسن حال وأحسن مجلس وحسن رفقة. ما جعل جرعاته أحسن متعة وحافزا لمجاراة

صوته المطرب مع مقاطع غنّاها الجوق في قاعة الفندق الخاصة بالسهرات الليلية.

واستمر السمر حتى الواحدة صباحا. مع انتهاء الجوق من أغنية من فن الراي للشاب خالد، قرر العشيقان العودة إلى الفندق الذي غادراه منذ ساعات طويلة. كم من الزبائن لا يدخلون إلى فندق إقامتهم حتى يرهقهم السهر في المدن الصيفية والليل الساهر. كذلك علقت سعاد:

ـ مراكش وأكادير، لا ينام الناس فيهما حتى الخامسة صباحا وسيارات الأجرة تشتغل بكثرة في النصف الأخير من الليل. هكذا كان تعليقها وهما في طريقهما إلى الفندق داخل سيارة الأجرة.

ليس صعبا على مضيف الفندق استنتاج التواصل بين حميد وسعاد أو بين غيرهما من زبناء الفندق. لكن هذا لا يعني التدخل في حرية الأشخاص ورغباتهم. رغم أن القانون معروف، فهناك توافق اجتماعي على غض الطرف والبصر عن مثل هذه العلاقات، خصوصا إذا كان العامل سياحيا واقتصاديا كما في مدينة مراكش هنا. هكذا كان كلامه لطيفا مع الطرفين، مادًا المفتاح لكل منهما:

ـ ليلة سعيدة.

ـ ليلة سعيدة.

ـ تصبح على خير.

ـ أمسية سعيدة.

آثر حميد أخذ حمام قبل معاودة اللقاء، فسهرتهما لم تنته بعد، وكأن الأمر مقاومة للنوم وصراع لأجل اليقظة المستمرة، ليستمر الطرفان مجتمعين لمدة أطول. في هذه الليلة الثانية غلب السهر على النوم الذي لم يكن سوى ساعات قليلة. وطبعا يكتمل العشق بالتحام القبل ومتعة الجسد. فالطبيعة تجرهما للتلاقح وأشياء أخرى.

اندست سعاد إلى غرفتها بعد طول سهر، حوالي الخامسة صباحا. كان نور اليوم الجديد باديا في سماء المدينة التي أصبح طولها ضعف طول البصر الناظر لها. كان اللون اللازوردي سابحا فوق صفحة الماء، ناشرا هدوءه السديمي والسرمدي الذي يستقيه من عمق السماوات. قد يكون الأفق متجاوبا معه في رسم اللوحة، لكن عيني حميد ظلتا غارقتين في هذا الهدوء الجميل. ودّ لو أنه يُخلّد اللحظة. يشعر بأنه إنسان عاجز عن ذلك. ابتسم للقدر وذهب لسريره ليخلد لنوم مطلوب. كان يوم جمعة، وهو يوم عيد المؤمنين.

...

تأمل السارد المشهد، وهاتف سلمى لكي تراجعه معه. عبّرت عن دمع منسكب على خدّيها. ودّت لو أنها تعيش لحظة هذا اللازورد الجميل والهادئ:

ـ لو أننا حققنا هذه الصورة معا في سفر مشترك وجميل!

لكن السارد استرجع اللحظة في المحاكاة وهو برفقة أخرى. كانت فاتي هي الهائمة في الصورة. من شرفتيْهما تبادلا تلويحا مباركا لها. تمتعا بليلتهما رغم أن توقيع تفاصيلها كان بهما معا وليس بتوقيع حميد وسعاد. سلاح السارد لغته وتعبيره وصوره الجمالية التي يخلقها مع المشهد واللحظة والظرفية. برع السارد في ذلك. ربما قد أصابه الغرور. شعر به فعلا. اعتبر نفسه صانعا

للأقدار. هكذا خاطب ذاته ودواخله. تراجع عن هذا التضخيم، وبقي في نسبية الحكي لقصة حميد مع سعاد في رحلة السفر ـ الحلم.

...

بغبطة كبيرة استيقظ حميد على الساعة الحادية عشرة صباحا، مستحما ومرتديا عباءته وبلغته. خرج طاهرا، وتناول فطوره بمقهى الأمس دون انتظار سعاد. ربما لم يرد إيقاظها حتى تستريح من ليلة بيضاء قضتها معه، بل من يومين من السهر وقلة النوم.

ـ الجمعة الماضي صليت في المسجد بالقرب من منزل أسرتي، سأذهب لأداء الصلاة في أقرب مسجد الآن.

نهض وبحث عن أقرب مسجد تؤدى فيه صلاة الجمعة. استحضر في الطريق أنه لم يصل منذ مجيئه في هذا السفر إلى مراكش. استغفر ربه وطلب العفو والمغفرة. قصد مكان الوضوء، فتوضأ ودخل إلى فضاء المسجد الكبير وجلس في رُكن من زاوية. أدى ركعتين لتحية المسجد، واستقام في جلسته شاعرا بالارتياح بحشر نفسه داخل زمرة المصلين. جاءه شعور بتجدد الإيمان والانتماء، ما دام الفضاء جديدا والناس جدد وهو جديد معهم ووسطهم. لا ارتباط مع الماضي في كل ما رأى وسمع، وفي كل من نظر له من الحاضرين. كم منا يتمنى لحظات حميد في هذا التطهير وبدء صفحة أو صفحات جديدة في حياته، علّق السارد.

حين خروجه من المسجد وجد رسالة مكتوبة في هاتفه المحمول، بعثت بها سعاد:

ـ صباح النور أين أنت؟

أسرع إلى مخدع هاتفي مقتصدا على رصيده من المكالمات، وحيى حبيبته ودعاها للخروج لتناول وجبة الغداء. انتظرها بنفس مقهاه الصباحي. بالقرب

منه هناك مطعم عصري مناسب. تناولا فيه وجبة الغداء، ثم عادا إلى المقهى من جديد. لم يفت سعاد أن تستغرب وتتساءل عن تناقضات حميد، والذي أصبح مستهدفا ومتهما. الظاهرة اجتماعية وثقافية. لكن، ما دامت المسألة مطروحة، فقد كان تبرير حميد تبريرا للظاهرة كأنه ليس معنيا بها أو داخلا في ممارستها:

ـ المغاربة هذا حالهم "شويا لربي وشويا لعبده"، اللهم اعف عنا.

وتتدخل المرأة بلُبّها المنتقد للرجل الذي يُعتبر الحامل لمشعل الشرع والاستقامة عبر التاريخ، جاعلة تصرفاتها نتيجةً يتحمل مسؤوليتها الرجل في كلامها:

ـ كيف يقبل الله أن نصلي ونشرب الخمر ونمارس تناقضات في تصرفاتنا؟ أنتم الرجال غامضون جدا. إليك يا حميد هذا الكلام ما ردك؟ ماذا تقول؟

ـ اتفق معك، ولكن هذا هو الحال، الكل يعيش فيه ليس لنا ما نفعله كثيرا لتغييره، ونحن عود من القتة. يوم يأتي العفو يفرج الله علينا. الساعة الآن الثالثة بعد الزوال، ماذا سنقوم به اليوم؟

...

لم يكن حميد ذلك المثقف صاحب الوعي الشقي المهموم بحدة السؤال وفك ألغاز التناقضات. لكن أجوبته بحجم تبريرها بحجم موضوعية بعض جوانبها:

ـ نحن الآن في السفر، نفوج على أنفسنا، وحينما نعود نلتزم ونتوقف عن ذلك. يصعب على المرء البقاء مستقيما دون الترويح عن نفسه وإلا سينفجر. فكم هم الناس الذين اختلوا نفسيا وعقليا بسبب اتباعهم طريقا واحدا وصل بهم إلى الباب المسدود. وأنتِ تعلمين أن الشباب اليوم يصعب عليهم إيجاد العمل والزواج بسهولة. لهذا لا بد من حلول مؤقتة ونسبية. وهذا ما يجعل ما نقوم به مبررا.

هي حفرة حوار، كلما زادت حدة أسئلته غارت قدما حميد فيها مستنجدا برفيقته في الخروج منه والاتفاق معه على هذه المبررات والتعليلات. تدارك أن سعاد هي الأخرى داخل دائرة هذه المتناقضات، لكنه لم يرغب في هجوم عليها بذلك لينقذ نفسه. يكفيه أن يتحمل مرافعتها ومحاكمته. يستطيع تحمّل ذلك.

عادت السائلة الحاكمة لموافقة المتهم على آرائه، فهي كذلك معنية بهذه الملاحظات:

ـ الله يسمح لنا. نتمنى أن يخرجنا الله من هذه المحن وهذا البلاء.

وما دامت هي التي أقحمت ذاتها في الظاهرة فقد أخذ حميد دورها الأول في المعاتبة:

ـ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

سعاد:

ـ أتفق معك، ولكن هذا هو الحال، الكل يعيش فيه، ليس لنا ما نفعله كثيرا لتغييره. ونحن عود من "القتة" كما قلت. يوم يأتي العفو يفرج الله عنا. الساعة الآن الثالثة والنصف. ماذا سنقوم به اليوم؟ لوكان الوقت كافيا لذهبنا إلى مولاي إبراهيم أو أوريكا.

حميد:

- أتريدين طلب الزواج من مولاي إبراهيم ـ طير الجبال ـ[3]؟

- تعلم أنني لا أرغب فيه، وقلتها لك بالأمس.

- ما أعلمه هو أن كل فتاة تفكر في الزواج.

- ليس أي زواج.

- اتفق معك، نتمنى أن يفرج الله ويسهل الأمور للجميع. وكل بئر يجد غطاءه.

[3] ضريح مولاي إبراهيم، المعروف بـ"طير الجبال"، هو مزار صوفي شهير يقع في قرية مولاي إبراهيم بإقليم الحوز قرب مراكش. يضم قبر الولي الصوفي إبراهيم بن أحمد الأمغاري (ت 1661م)، ويعد مركزاً روحياً يقصده الزوار للتبرك، خاصة النساء، حيث يشتهر بطقوس شعبية مثل تقديم الشموع، ونحر الذبائح، وزيارة بئر الولي.

لم يعودا إلى الفندق، بل ذهبا إلى المنارة. قضيا ما تبقى من النهار هناك في تجوال بين جنبات حوض الماء، وخارج المنارة مع أشجار الزيتون والنخيل، وكل له رغبة في محو التجارب السابقة ومعاودة تجربة جديدة بروح جديدة وبكل ما تحتاجه من رومانسية وأحلام وخطط حياة وأمنيات.

...

وقف السارد هو الآخر متأملا صفحة الماء الفسيحة التي تزين حوض المنارة. نزع نظارته الشمسية وشعر بشيء من الغيرة مما رواه له حميد. أراد أن يبصم بلغته وثقافته ومشاعره هو الآخر هذه اللحظة. وضع كف يده اليمنى على كتف فاتي وبدأ في وصفه ورومانسيته الخاصة:

ـ لا أظن أن الجميع يستطيع أن يخلق السعادة المرتبطة بزيارته لهذا المكان. من لم يصعد لشرفة هذا الجناح الملكي المطل على البحيرة المائة، ويسبح بعينه في الألوان والآفاق المتنوعة التي تتغذى بها العين، فإنه ضيّع لحظات خالدة من عمره. خصوصا إذا كانت بجانبه محبوبة جميلة.

نظرت إليه فاتي بعينين متفحّصيتن لكلامه. أرادت أن تقرأ في عينيه وملامحه عمق هذا التعبير وهذا الحب. احتضنته مغمضة عينيها ومعانقة صدره، هاربة من أي تأويل ينقص من سحر الكلام.

خاطب في دواخله شبح حميد: لا أظنك يا حميد استمتعت بهذه الوقفة الخالدة!؟

ـ أتعلمين يا فاتي! لقد كان هذا الصهريج مجال تدريب للجنود على السباحة وفنون القتال في عهد الموحدين. هو جزء من هندسة مائية التي تميز بها تاريخ المغرب كذلك.

ـ جميل جدا.

...

ـ أتعلم ما سنقوم به الآن؟

ـ اقترحي أنت.

ـ سأعزمك على عشاء في مكان أحبه كثيرا، ثم نتجول بعده في شوارع جليز وندخل إلى مقهى الفندق. ما رأيك في الذهاب غدا خارج المدينة؟ لا أريد اقتراح مولاي إبراهيم حتى لا تعاود ظنك الخائب بالنساء.

ـ كما تشائين. لم أزر مولاي ابراهيم قط. لم لاَ. نذهب إليه إذا شئت.

ـ إذا أنت الذي تريد البحث عن الزواج؟

ـ لا حاجة لي به، ولا بالنساء. تكفيني سعادي بجانبي.

ابتسما معا وتبادلا قبلة رضى على الثناء. كانت خفيفة، شدت معها سعاد بيد حميد وولَيّا راجعين إلى شوارع السهر والمرح.

ـ أتعلم ما يميز المطعم الذي نقصده الآن؟ هو في زاوية مفتوحة على شارعين كبيرين مدخله حديقة وبنايته رائعة في هندستها ورحب فضائها. ديكورات عصرية وتقليدية، وعزف بيانو ينسيك هموم الدنيا وناسها. أظن أن الليل حل بظلامه، لم لا نبدأ بالمطعم إذا؟

ـ لقد شوقتني لرؤيته وفتحت شهيتي.

داخل سيارة الاجرة:

ـ مطعم الورود من فضلك.

ـ "واخا آ لالة" حاضر سيدتي. أجاب السائق وهو يطأطئ رأسه مع أغنية لالة منانة، الشعبية.

أثنى حميد على رشاقة السائق:

ـ تبارك الله على المعلم، الله يخليك ديما ناشط.

ـ آمين أخويا، وأنتما كذلك.

مولاي ابراهيم

في مولاي ابراهيم، ارتسمت ملامح الزيارة لأضرحة المغرب، وتقاسمت الأشكال وظائفها. بدا الجبل من بعيد مكسوا بالثلوج، وبدأت سيارة الأجرة في ولوج المنعرجات. مناظر طبيعية خلابة بعضها خالص من كل اختراق بشري أو عمراني. اخضرار ومجاري مياه طبيعية، تجاورها الطريق المعبدة في بعض الأحيان بالتواءاتها ورسمها. تبدو الوديان كأنها المهندس الذي حدد شكل هذه الطرق في اتجاه المقام.

بمجرد النزول تلتقيك نساء بزي صحراوي أطلسي، بباروك للشراء والاقتناء، خاتم فضي، عقيق، رزمة بخور صغيرة، حمولات حلم زواج، تجعلك تشعر بتلك النية التي جئت بها لزيارة الضريح وتهيؤك لصعود درجه حتى ولُوجه بين دكاكين الشموع والبخور والمنتوجات الفضية أو غيرها.

وأنت تقترب من الباب، تلاحظ ذلك العمود الخشبي الممتدة أفقيا من فوق عتبة الضريح ببضع سنتمترات. قد تنبهك لاستحضار الإجلال، أو لرفع الخطو وترك همّ العيش وراءك ببسملة تعينك على ذلك، حتى تزور هذا الضريح الممتد حصيره، حتى تصل إلى قبة فيها قبر رئيسي، وآخر صغير بالجانب. حلقات طُلبة وقراء القرآن، متسولون ببركة الذكر والمدح والدعاء. ركام بشري منسي من حساب التاريخ ومشاريع التنمية، يعيش في هذا العالم القروسطي المخترق للمستقبل باستمرار.

...

مرة أخرى، يقف السارد وهو شاعر بغربة كبيرة. اعتبر ذاته بعيدة عن كل هذه الطقوس. لا ينتمي إليها في كل جزئية لاحظها فيها. وكأن حميد هو الذي ورّطه في هذه الزيارة. ودّ لو غادر المكان، لكن هناك فاتي التي تشجعه على الاستمرار:

ـ اعتبِرْ نفسك مستكشفا وباحثا أنثروبولوجيا. قمْ بتدوين ما تراه حتى يكون الوصف حقيقيا. هذا نفع الزيارة الآن.

...

زوار كثر متعددون في الأعمار من رجال ونساء وأطفال. امرأة حاملة لمجمر بخور صغير وقنينة عطر، تبخر بهذا وترش بذاك، في طواف حول سياج القبر، مرددة لما عندها من كلمات معبرة عن مطالبها وإيمانها، وتبركها وتوسلها، طاردة للشرور والنحس بقرابينها وزيارتها. أقفال كثيرة على بوابات قديمة وبجانب القبر وشباك سياجه. صناديق علقت بها أقفال شتى كذلك:

ـ جئناك طالبين طرد النحس عنا. نريدك تحقيق أمانينا. أنت الولي المبارك المرضي عنك. أنت طريقنا إلى الله تعالى ببركتك وزهدك وعلمك. كراماتك زادنا وعلاج لأمراضنا ومرضانا، وتفريج عن كروبنا. والله المكمل لمبتغانا. اختصرنا الطريق لكراماتك بزيارتك لنعود لدنيانا وتسوى أمورنا.

مزارات صغيرة بدرج موصل للأضرحة النائمة. هنا ترقد "لالة محلا بنت مولاي إبراهيم". للتطهر والغسيل لابد من النزول من أعلى الجبل إلى عين ماء في سفح الجبل على الوادي إنها "عين الرحى". هنا مختبر التطهير والتحرير من كل الآثام والشرور، من هول الإنس والجن وكل ضرر ضرير. في الجبل المقابل، مسلك قدمي موصل إلى خلوة مولاي إبراهيم حيث كان يعتكف بعيدا

عن أهله ومحيطه. إنها جبال الأطلس الكبير. شامخة بلا إنسان. أضاف إليها هذا الإنسان الخيال والأساطير، وطابع التسبيح الديني والركوع للعلي القدير.

ـ التسليم آ رجال البلاد. هكذا حطت قدمها اليمنى ونطقت عبارتها لما وصلا إلى جبل الضريح مولاي إبراهيم.

لم تكن غريبةً زيارةُ الأضرحة عند حميد ولا سعاد، فمنطقة مكناس مليئة بالأضرحة التي يؤمّها الناس: مولاي إدريس، سيدي علي بن حمدوش، سيدي أحمد الدغوغي، الشيخ الكامل الهادي بن عيسى... الجديد هنا هو هذا الفضاء بتضاريسه وعمرانه وتصميمه وإنسه المتعددين، وهذا الاسم المضاف إلى لائحة الأضرحة المنتشرة في البلاد انتشار التجمعات البشرية.

كما لم يعترض حميد على تعبير سعاد، لأنه في وجدانه يقر بوجود مسافة تقدير واعتبار للأولياء الصالحين والأضرحة. نفسيتنا مبنية على الخوف من أهل المكان (رجال البلاد)، خوف من نية قصد وزيارة رجال البلاد تكون ناقصة لا تحقق مبتغى ولا تحمي من انتقام رجال البلاد، من كل من جاءهم عابثا أو غير مُسَلِم.

لو قُمنا بعملية مسح لانتشار الأضرحة بالمغرب لوجدناها حاضرة بقوة في كل قرية أو مدينة، جبال وشعاب. ربما أكثر من المدارس. وزيارة الناس لها تأخذ طابعا روحيا وسياحيا في آن واحد. فالكل يتقن دمج المطالب والرغبات رغم تناقضها أحيانا. هذا ما سيلاحظه حميد خلال هذه الزيارة لمولاي ابراهيم. خلال يوم السبت هذا. انمحت معالم المدينة العصرية بعمرانها وهندسة شوارعها وأحيائها وعماراتها. غلب الطابع التقليدي حتى في اللباس. حتى سعاد أتت بجلباب فضفاض ورداء رأس مفتوح كانت قد وضعته في البداية حول عنقها. لكن لما قصدا طريق الضريح، تحوّل فوق رأسها، مستعدة للزيارة المقدسة، كأنها صلاة ستؤدى فوق سجاد وعملية تطهير من بداياتها إلى نهاياتها.

دخل حميد مع سعاده إلى قبة الضريح واتخذ مجلسا من زاوية، مُبْدِيًا الاحترام والحياء تجاه ما يجري. انقلبت سعاد إلى كائن ملائكي يتمسح بشباك الضريح المغطى بأثواب بين خضرة وبياض. هائمة في سلوكها خارج إطار الفضاء

المادي المحيط بها ربما. تأمل المحايد زخرفة السقف والقبة والثريا المتدنية من فوق: رمز السماء بنجومها وآفاقها السبعة ربما. كلما صعد نظرك إلى قعر القبة وجدت ظلمة زائدة هي أسرار هذا الكون والوجود المجهول. قد تكون الثريا رمزا لأشجار الجنة بفواكهها. هكذا حضرت صورها سريعة دون جعل رابط وظيفي رمزي بين عناصر هذا التشبيه العفوي الحاضر في ذهن حميد. جل الحضور من النساء. طفل مريض عقليا متشبث بتلابيب جلباب أمه وهي الواضعة لرأسها على شباك الضريح شبه نائمة في وقوفها، داعية وطالبة ويداها مشروعتان وموضوعتان فوق سطح الشباك، مستسلمة لجبروت وقدرة قادر أو صاحب المكان. أهو حلم أم يقظة يعيش فيه هؤلاء الناس؟

يتوزع الدعاء بين طلب الله وطلب مولاي إبراهيم. عجوز جالسة بمسافة قليلة أمام الشباك. لا حركة تبدو عليها ولا كلام. فقط عينان مركزتان على الثريا وقبر الضريح المغطى. خشوع وصمت طويل بادٍ عليها طوال الجلوس. لقد كانت جالسة هنا من قبل دخولهما، وبقيت كما هي عليه بعد خروجهما. شابّة بحنائها وعينيها الجميلتين بكحول يزيدهما كبرا ونضارة، كأنها تكتشف جمالها وأنوثتها، واثقة من ذاتها، واضعة لدزينتي شموع بالضريح، متبركة بكل جانب من جوانبه، وفرحتها عارمة في نظراتها وحركاتها، كأنها عروس مهيأة لليلتها. فأل أرادته، مادام مولاي إبراهيم يباركها ويسعدها وييسر زواجا قريبا إن شاء الله لها.

في لحظاتٍ، تمنّى حميد وتخيل نفسه عريسها، فانفتحت شهوة الدخول بالمرأة العروس في ذهنه وكاد أن ينفلت وعيه فيذهب في حلم يقظة. بسرعة حوّل تفكيره من المدنس إلى المقدس. تمنى لو انسجم بنيّة غير معقلنة مع طقس زيارة الضريح، لعله يخرج مباركا ومحققا لما يرغبه اجتماعيا وأسريا في حياته. لكنه في لحظة داخل هذا السفر الذهني تذكر أن له أضرحة في منطقته كثيرة وقوية التأثير ربما هي الأَوْلى بالطلب.

حضرت الواقعية في التحليل واستحضر خيبة آمال الكثير وعدم تحقق المراد والمرجو في زيارات عدة أناس، يعرف بعض الحالات منهم، ويشفق عليهم. استحضر كذلك اختلاط هذا المقدس بالمدنسين وكيف كانت مراهقته متمتعة بمواسم منطقته التي تقام لهذه الاضرحة. كيف كان الدخول إلى كل ضريح مرتبطا بالتواصل والتكلم مع فتاة، واستغلال الطقوس الاحتفالية من طرف الذكور والإناث للقاء خارج رقابة المجتمع. ما دام الأولياء يحرسون المكان ويحمون أصحابه. وما دام الجل هائما بكل حضرة أو دعاء بهذه الأضرحة مع الطقوس الاحتفالية والتبرك الوجداني الذي يجعل الذات مجردة عن كل ارتباط حولها. فردانية روحية تخلص من المعاناة والأزمات النفسية الداخلية التي ولدتها صدمات واقع الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأسرية.

تذكر كذلك الظواهر المتعددة المنتشرة في المواسم، حيث يقصدها الشواذ والمتاجرات في الهوى، والعرافون والعرافات، بين الرغبة في التكفير وفي تحقيق اللذات. تناقضات لا يريد أحد فك لغزها. ازدحمت هذه الأفكار في ذهن حميد، ولم يوقظه منها إلا ظل جسد أنثوي بدا أكبر حجما من سابقه، إنه هيئة سعاد التي حجبت ضوء باب الضريح عن أعين حميد. بدون كلام لفظي بل فقط بلمح بصري. بلغة الأعين فهم حميد أن الزيارة قد انتهت داخل الضريح بعد أن بدأت بالتصدق على الفقراء المنتشرين بين المحطة ومدخل الضريح، وكذا بشراء الشموع وإعطاء بركة للفقيه الجالس في باب مدخل الضريح، الحارس الأمين على سلامة الطقوس والزيارة. أمر واحد منع حميد فيه سعاد من القيام به، وهو الجلوس لانتظار دورها في كتابة الحجاب ـ الطلسم من طرف الفقيه تجعله معها وتتبرك به. هي منافسة نسائية على السبق في نيل رضا الغيب وفتح أبواب الجنة الأرضية والأخروية وتحقيق المتمنيات قبل الأخريات.

ـ أنا فقيهُك الآن، سأكتب لك ألف حجاب بآلاف الأمنيات.

ابتسمت مبدية عدم الاعتراض على اعتراضه وأسفا خفيفا على عدم التبرك بالحجاب. كيف ستجتمع الابتسامة مع الأسف؟ طبعا حسرة نفسية قد يعيشها كل واحد منا. ولكن لا بأس.

...

أخذ السارد نفَسا كبيرا. تأمل الفقرة السابقة. تساءل حول أفكارها، أهي له أم لحميد؟ شعر بأن المنافسة أصبحت قوية بينهما في الوصف والتحليل والتأويل. كأن الكتابة سحر وسلاح خفي لا زمني يدعوهما لتوقيع الأقوال والأفكار وجعلها لهذا بدل الآخر.

...

ذهبا إلى المقهى الكبير الموجود قرب المحطة، وطلبا إبريق شاي بالنعناع، منعنع كما جاء على لسان حميد. أسرع في إشعال سيجارة لتدخينها، وبدا على سعاد الانشراح والهدوء بعد هذه الزيارة. لم يتدخل حميد لملاحظة أي شيء في سلوكها. بالعكس ساير مناخه. فكل النساء تشتركن في بهجة الزيارة سواء مع أزواجهن أو أولادهن أو أصدقائهن أو بمفردهن. سلاح النية الحسنة والصادقة هو الأفضل في هذه الوضعيات.

ـ أتمنى قضاء الليل هنا.

ـ والفندق في مراكش؟ تساءل حميد مستغربا نوعا ما.

ـ غُرفنا في أمان طبعا، سنعود في الصباح، ما رأيك؟

ـ كما تشائين. والمبيت؟

ـ لقد سبق لصديقتي نعيمة أن أتت إلى هنا مع صديقها وقضوا يومين رائعين. ليس هناك من مشكلة في المبيت.

ـ طيب نستريح هنا ونبحث عن غرفة للمبيت.

ـ تتذكر كيف هرول الأطفال والنساء إلينا في المحطة عارضين كراء المنازل أو الغرف للمبيت. المسألة ليست صعبة. ما قالته صاحبة الجلباب الأحمر: مرحبا بكم، ليس من مشكل في عقد الزواج فكل الأصحاب نستضيفهم في راحة تامة. أشعر بارتياح كبير، لم يعد قلبي يؤرقني بنبضاته الضاغطة كأنه كان يريد التوقف.

ـ الحمد لله أن هذه الزيارة فيها البركة والصحة. معلقا بابتسامة، وقد بدا عليه بعض المزاح بدل الجد في جوابه. لكن جوابه لم يقلق الخاشعة مع الزيارة والفضاء. فهي في تجرد عن كل توتر، يبدو أن أهل المكان قد سكنوا دواخلها.

ـ أنتم الرجال ليست عندكم نية صافية حتى مع الأولياء الصالحين.

ـ حرام عليك هذا الاتهام، ألم تريْ انضباطي واحترامي لضريح مولاي إبراهيم؟ أتريدين أن يغضب مني الولي الصالح.

ـ أتمنى أن تكون نيتك صافية. ما رأيك في طلب تحضير طاجين شهي لوجبة الغداء؟

ـ هذه فكرة جيدة، اللهم نفعنا ببركة مولاي إبراهيم.

ـ آمين. قالتها سعاد متناولة كأس شايها وضاربة بركبتها ركبة حميد، مركزة نظرتها المبتسمة في عينيّ ونظرات حميد لها.

هو امتلاك جديد ترغب فيه نفسها وتطلبه. ما دامت الدنيا لا تفي بوعودها فتأخذ العزيز على قلوبنا. أين هو أبوها؟ أمها؟ أين هو زوج حياتها الذي أرادته لنفسها وغدَرها؟ فجأة اغرورقت عيناها بدموع ساخنة حجبتها بمنديلها، مخفية تذكرها وحزنها الذي تزاحم مع بسمتها لمرافقها. عادت البسمة هي الغالبة والرغبة في متعة تعوّض الحرمان، وأمل في آت أفضل مما فات. هكذا هي الحياة.

سأل حميد نادل المقهى عن غرف مناسبة للكراء، فكانت أجوبته سريعة وعملية. نادى على جالس بالقرب من المقصف، فحدد لهما بإشارة المنزل من موقع

جلوسهم في المقهى. تابع صاحب المنزل استحسان الغرفة التي سيكتريها لهما. واتفقا معه على ثمن مناسب للجميع 100 درهم.

- كل من ينزل عندي يبارك له مولاي إبراهيم قصده، وكم منهم عاد باحثا عن نفس الغرفة. نتمنى من الله تحقيق مقصدكم من الزيارة. وبصوت خافت في أذن حميد: إذا لم يكن عقد الزواج معكم ليس من مشكل في ذلك، فالكل يتفهم ويتعامل، نرضي أصحاب الحال فلا تبقى هناك عقبة. ادهن السير يسير. مولاي إبراهيم يريد نية صادقة.

- بارك الله فيك، نتمنى من الله الخير الوفير والسلامة والبركة للجميع. هكذا نوّه حميد بتفهم صاحب المنزل لغرضهما وقصدهما ونيتهما.

لم يكونا على استعجال لرؤية الغرفة. نهض حميد متجولا بقرب المقهى وسعاده جالسة في مناخها المقدس الذي جاءت لأجله. راقب وعاين إعداد الطواجين وسأل عن ثمنها ومحتوياتها، فاختار ما رآه ملائما لهما على أساس أن يحضره لطاولتهما حين يصبح هذا الطاجين جاهزا.

في عودته لكرسيه بالمقهى كان دور سعاد في النهوض، كأنهما يتناوبان على ذلك:

- إلى أين؟ سأل حميد.

- سأعود للضريح لتأدية الصلاة.

- اللهم اهدنا يا رب العالمين. لو علمت أن مولاي إبراهيم له هذه البركة لأتينا عنده قبل هذا اليوم.

- إياك والمزاح في الدين. دع الزيارة مباركة واطلب التسليم فيها.

- تقبل الله، لقد أوصيتهم بإعداد طاجين سيكون جاهزا بعد ساعة تقريبا.

- سأعود بعد نصف ساعة فقط، لا تلتفت إلى أخريات فكلهن على استعداد.

- من عنده رزقه يحمد الله ويقنع ويغمض عينيه. كفاني سعادي.

لم تجبه على كلامه المتغزل. انصرفت بعينين خجلتين محافظة على مناخ زيارتها الذي بدأته.

ذهبت سعاد عند ناقشة الحناء فوضعت وشما وزخرفة خفيفة على جانب ساقها الأيسر. عادت إلى الضريح من جديد، كان طقس الزيارة يحتاج إلى الانفراد والخشوع والتفرغ الداخلي لها دون اختراق من طرف أي كان. خرجت منه بأعين محمرة قليلا، علامة دموع أذرفتها مطهرة بها فؤادها الذي كان في حاجة إلى تطهير. جلست أمام فقيه بجانب باب الضريح مقبّلة يديه طالبة بركة مكتوبة تساعدها على مواجهة الآتي. أخذت "الحجاب" وأعطته ورقة مالية قدرها 20 درهما. انصرفت إلى ممر الدكاكين المصطفة والمتلاصقة، متجولة بأعينها فيما تعرضه، لامسة لأشكالها، سائلة عن ثمن بعضها. لم يكن الاستعداد للشراء قد تهيأ بعد.

حين عادت إلى المقهى، كان كل شيء جاهزا. عُرض الطاجين الساخن، فأكلا وتذوقا ما وجداه أمامهما. وبعد تناول كأس شاي جديد، قررا الذهاب إلى الغرفة التي اكترياها. جعلت يدها على ذراعه متمسكة بها، فهم حميد ازدياد الشوق والتلهف. ردد كلمات من قصيدة ملحون حول الغرام كتعبير على اغتباط وتجاوب.

غرفة عادية لكنها منظمة. سرير فوق الحصير وطاولة صغيرة. كل شيء يبدو نظيفا ومشجعا على البقاء فيها، على الأقل هذه الليلة. تأكدا من وجود الماء ومكان الاستحمام. بدت سعاد كأنها مهووسة بطقس ديني غريب. طلبت ترتيب نفسها قبل أن يلمسها حميد. اعتذرت بشكل لطيف جدا يوحي بأسلوب المتعبدين الزاهدين. أدت ركعتين مليئتين بالأدعية. لما فرغت منهما، احتضنت حبيبها بآهات أسالت دموعا على خده. اشتعل معها طقس الجنس المرغوب عند الإنسان، الذي يجعل كل لمس وهمس واحتكاك وعرق واختراق مثيرا مشجعا على الاختمار في لحظاته.

كانت التجربة كأنها طقس كهنوتي من بدايتها إلى تحققها الأخير. لم ينطق حميد ببنت شفة كما يقال. استكان وأذعن لأسلوب حبيبته، حقق معها نشوته ولذته الكاملة. عيناه راضيتان على الحال.

لم يفارقا سريرهما وغرفتهما إلا مع غروب الشمس. بخرجا باحثين عن حياة الجماعة فوق هذا الجبل الخاشع للولي والعبادة واللذة والرغبة، الفاتح أذرعه لمطالب زواره، العابث بالزمن إلى الوراء. هو مجرد مذكِّر بحنين الطفولة وما فوّته العمر على الذات من لذة واستحقاق. آه ثم آه. حسرات تحترق بها أنفاس الصاعد إلى هذا الجبل لعله يطفئ نيرانها.

عادا الى نفس المقهى، توطد التعارف مع أصحابها وازدادت الخدمة لباقة وترحابا.

خلال عودتها من مولاي إبراهيم، حملت سيارة الأجرة حكايات غريبة، روتها نساء راكبات. معالم جدية الزيارة بادية على حركاتهن ونبرة خطاباتهن.

كان (شمهاروش)[4]، بطل الحكاية الجديد في رحلة العودة من مولاي إبراهيم إلى مراكش. في أماكن قصية من هذه الجبال توجد صخرة فتحت فجوة بجانبها من جوف الجبل. فيها سر (شمهاروش). أ هو جن أم ملك جن؟ الحكاية مستمرة عن بركته ومن يذهب لملازمته وطلب مساعدته في تحرير النفوس والأرواح من كل قيود شياطين الإنس والجن، مما امتلك صاحبها من أرواح خفية. لا يفارق المكان إلا بغتة بعد أن يأتيه (شمهاروش)، بالنهار أو بالليل. قد يأمره بتنفيذ شيء ما، قد يوجهه لطريق أو لمجرد مغادرة الوكر. المهم، كأنه استيقاظ من نوم أو سبات عميق، كأنه حلم أجحظ صاحبُه عينيه فأرسله إلى خارج الفراش/المكان. تحل القيود وتذوب وتفك الأغلال الخفية ويتحرر صاحبها لينطلق لحياة البشر من جديد، بعد أن كانت امتلاكا لإنس أو جن أو شياطين. إعادة ترتيب أوراق العلاقات بين المرء ونفسه، وبينه وبين الآخرين.

ـ وقف (شمهاروش) على أحد ملازميه في نومه، وأمره بمغادرة المكان ليلا، كأنه إسراء واختراق معراج. ستذهب بعيدا خارج المغرب وستحصل على أوراق إقامة فيزاvisa وعمل، وسيتغير حالك ويتحسن. ولكن لا تنساني ببركة من ذلك.

---

4 شمهروش شخصية أسطورية شهيرة في الموروث الشعبي المغربي، يُعتقد أنه "ملك ملوك الجن" أو قاضي الجن الأعلى، ويقع ضريحه الشهير في قرية إمليل بجبال الأطلس الكبير بالمغرب. عبارة عن صخرة كبيرة مكسوة بثوب أخضر ومحاطة بمكان يشبه القبر، ويوجد بجواره مكان لذبح القرابين. حيث يُنظر إليه كمكان لفض النزاعات بين الإنس والجن، ويُعتقد أنه جني مسلم عاصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم. يزوره الناس (خاصة من يؤمنون بالروحانيات) بحثاً عن الشفاء من "المس" أو السحر، ويُعتقد أن المحاكمة تحدث في ليلة الخميس، حيث يفض النزاعات بين الجن والإنس. من طقوسه: "الحضرة" وإيقاد الشموع وذبح القرابين، ويتمتع بقدسية لدى بعض المحليين والزوار. يعد شمهروش جزءاً من الثقافة الشعبية المغربية التي تمزج بين الأسطورة والمعتقد الروحي .

ـ غادر الرجل الجبل ليلا. وهو في الحافلة بعد الخروج من مدينة مراكش جلس بجانبه رجل. تبادل معه أطراف الحديث والحوار. انجذب الرجل لمرافقة القادم من إلهام قمم الجبال، وطلب منه مرافقته إلى أوربا خارج المغرب. وما هي إلا أيام قليلة حتى كان صاحبنا ذاهبا إلى خارج البلاد. عاد بعدها بمدة، وبنى لشمهروش بناء وقدّم من الزاد والقرابين ما شكر به مُلهمه ومحرره ومنقذه. إنها بركة شمهاروش.

ـ آخَرُ جاء الى المكان رفقة قريب له، ونفذ جريمة قتل في حقه طمعا في الإرث وخوفا من حرمانه منه، خصوصا وأن الهالك كان يريد الزواج، مما سيُحول الاستفادة من المال. أراد القاتل الهرب ليلا، وفي أي اتجاه ذهب وجد أمامه رجلا بسلاحه وعسكرا مطوقا له وأمامه، جدارا مانعا له من التقدم للفرار. ولشدة رعبه، وحصار الرجل له طول الليل، سلم نفسه لرجال الدرك معترفا بجريمته مطالبا بحمايته وبتحمل عواقب قتله بدل حصار شمهاروش وجنوده له.

حكايات تروي بركته وقوته ودوره في جلب الخير لزواره ودفع الشر عنهم.

ـ شايلاه آ شمهاروش مالك الجن وساكن الجبال.

يختلط ذكر الحكاية بوصف الطبيعة الخلابة ومتعة النظر الفياضة. يجمع الحاكي بين الميل لهذا المتخيل المقدس وبين بعض ميل لملاقاة الطبيعة والحياة الحسية ومتعها. قد لا يجد خيطا رابطا بين خياله وواقعه، فتراه يمزج بين متخيله ومشهده ليستأنس به، حتى لا يغترب عن واقعه. وما الجنون إلا اغتراب عن الواقع أو رفض له ولمعادلاته وصدماته.

إنها حيرة إنسان لا يدري هل حقق مراده ما دام عميقا في نفسه أم أنه يعيش بقدره؟ من يدري؟ لا يدري؟

سائق سيارة الأجرة كذلك كانت له بركته في الحكايات. لكثرة ذهابه وإيابه بين مراكش ومولاي إبراهيم، وكثرة ركابه وتنوع أحاديثهم امتلأت ذاكرته، وما

هو إلا بشر، واحد مثلهم، لم ير ولم يجد إلا التسليم ببركة الولي وكون كل شيء من عند الله.

امرأة في المقعد الأمامي. بلباس عباءة سوداء، تدخلت في ثنايا الحديث مباركة لحكايات الولي. عبّرت مرافقتها عن معاناتها وكيف أنها كانت مقبوضة بسلاسل وقيود في (بويا عمر)[5]. أبانت المرأة عن آثارها في يدها وذراعها، كادت تمزق ذراعها من ضغط السلاسل كأنها من معتقلي غوانتانامو جهنم الولايات المتحدة الأمريكية... لا زالت الحروق بادية آثارها على جلدها.

لم تكن إذًا زيارة هذه المرأة عادية للجبل. فهي وقد خرجت من تجربة الجنون والهيجان وعذاب النفس، تحتاج إلى مضمد للجراح الروحية والنفسية تنسيها ما قاسته في الماضي، وحقنتها المستمرة زيارة الأضرحة، وبالخصوص مولاي إبراهيم. هكذا واظبت على زيارة مولاي إبراهيم شهريا، وكأنها حقنة موسمية وشهرية.

...

"العقل مأساة السياسي ومعتقلٌ للفكر والروح. والروح أسْرٌ لهؤلاء المساكين، تسكنهم الأشباح والأرواح الجنية والشيطانية. طبعا من لا مسكن له يحتاج إلى ملجأ، وهؤلاء الجن والشياطين تحب أن تسكن في أجساد البشر، ما دام الإنس يعيشون المحسوس والواقعي.

صراع غيبي بين الخير والشر محوره الإنسان، وهو الذي لم يخرج من صراع الواقع بين المالك والعديم التملك. مدبروه من تحت سماء الإله. ملائكة وشياطين وأرواح خفية جنية وإنسية". كانت هذه الأسطر مُتْممة آخر صفحة من اجندته الصغيرة التي حملها السارد معه إلى جبال مولاي إبراهيم. اتخذ زاويته في نتصف منحدرٍ مترب. اتكأ على جذع زيتونة. بدت له فاتي في وقفتها كأنها قصب خيزران أعلى الجبل. نظراتها متوجسة من حالة هذيانه مع الكتابة. ربما

[5] ضريح يقصده الناس للعلاج من أمراضهم النفسية والعصبية. تطورت وظائفه إلى أن أصبح ملجأ يودع فيه المرضى وتنتشر فيه طقوس غريبة جدا. أما الولي بويا عمر فهو الصوفي إبراهيم بن أحمد الأمغاري (ت 1661م).

تتساءل: ما حاجته إلى هذه الطقوس في التوثيق؟ لِم لا يستريح في فندقه ويمارسه كتابته؟

لم تعلم أن طقس الكتابة شطحات ولحظات للحس والوجدان مع رائحة التراب وعبق الأزهار وأوراق الشجر، وتنفّس هذه التلال الجبلية من الاطلس الكبير. هذه الألوان التي تترجم الطبيعة في جبِلّتها، وهذه السماء الساهرة والشاهدة والكاشفة والمستقبِلة لكل مناجاة وآهات.

...

انتقل السارد إلى تدوين مذكراته قبل أن يحوّلها إلى رواية. حاول تحليل شخصيتي حميد وسعاد ما دامتا قد خلقتا تساؤلات حول تناقضاتهما وما سارعا إليه:

(الكل تساءل عن شخصيتي حميد وسعاد. هناك من علق على روايته بالاستغراب. كيف يعقل أن يكون الإنسان متناقضا في سلوكه وحياته؟ كؤوس ويسكي بالليل، وصلاة جمعة بخشوع خلال النهار؟ كيف يعقل أن تترامى سعاد هكذا في أحضان حميد منذ الليلة الأولى؟ وكيف تتم ممارسة الجنس بهذه الشاعرية إلى درجاته القصوى؟ كيف يعقل أن تكون رافضة لفكرة الزواج حاقدة على تجربة رجل ما، وها هي ترتمي في أحضان الرجل الأول؟ ها هي تتمنى الزواج في طقوس زيارتها لضريح مولاي ابراهيم. وتلك الرحلات الذهنية التي رافقت حميد، كيف تكون بذلك المستوى من التحليل والتناول وهو الإنسان البسيط الذي لا يمتلك سوى ذكاء التعامل الاجتماعي والتواصل البشري؟

لقد تابع وصف هذه القصة وأحداثها جمهور غفير على صفحات منتديات عدة، وصفحات المدونة التي تضمنتها. علقوا عليها باستغرابهم وأسئلتهم وتأييدهم لمغامراتهما وجديدهما، أو بالعكس رفضوا القيم التي اعتبروها منحلة ومنحطة في سلوكهما. لكننا حينما نعود إلى حميد وسعاد، نجد شخصيتيهما مركبتين بالشكل الذي عبّرا به. هما هكذا. وكم من أفراد المجتمع يُشْبِهُهُما في التصرفات المتناقضة. فمن يستطيع أن يُعرّي شخصيته أمام مرآة الحكي؟

هكذا كان ردهما ورفضهما لكل اعتراض على لقائهما وحياتهما الماضية والحاضرة والآتية من خلاله.

ماذا جرى بعد زيارة مولاي إبراهيم؟ لماذا توقفت الرحلة والحكاية مع العودة والوصف الملاحظ لظاهرة زيارة الأضرحة وقبور الاولياء؟

أسئلة تجعل كل واحد منا يحتاج إلى وقفة في طريق الحياة ليتأمل، ليستريح لينظر إلى كل الخطوات التي تركها وراءه، والتي ترافقه إلى حيث هو واقف حوله وفيه.

كيف نستطيع فك هذه التناقضات وتفسيرها؟ هل نحتاج لتحليل سوسيو ثقافي ندرج الشخصيتين فيه؟ أو تحليل نفسي يفسرهما؟ طبعا لا محيد عن ذلك. فالقراءة للذات تتجدد بالمعطيات الموضوعية التي تتجدد وتتنوع وتتولد، بالتفاعلات الداخلية التي تتأثر بها نتيجة الشخصية الإنسانية.

لا يمكن فهم تناقضات شخصية حميد بدون فهم حقيقة كل واحد منا. ألا تتواجد بداخلنا، في سلوكنا الذهني وفي أقوالنا وحتى في نبضات قلوبنا تناقضات؟ حتى في النوم، وهو حقل الحقائق الدفينة التي نعيش فيه الاضطرابات والتناقضات بين الأحلام السعيدة والكوابيس المخيفة، والذي نركب فيه رموز تناقضات الواقع في تفاعل سوريالي متقن.

كيف هي قيم هذا المجتمع التي توجه سلوك شخصية كل فرد منا؟ هل هناك تحولات ورجّات مرتبطة بها؟ التناقضات موجودة كظواهر طبقية اجتماعية ثقافية وإعلامية وإيديولوجية وغيرها... التناقضات موجودة في المسرح السياسي الذي يوجه المتفرجين ويستهويهم يمينا وشمالا، علوا ونزولا، مباحا وممنوعا...

التناقضات غزت فيها ومعها ظروفُ عيشنا واللغات واللهجات التي نستعملها. هي في رغباتنا، وطموحاتنا مرتبطة بالحرمان والعجز أمام الشوق والرغبة المقموعة أو المستحيلة. التناقضات أزمة تتفاعل في دواخلنا وعلاقاتنا، فنصرفها بالطرق المبتكرة والتي قد لا تكون مشروعة ولا مباحة. التناقضات تربية تلقاها الصغار عن الكبار، والعامة عن الخاصة، والمحكوم عن الحاكم، والمأموم عن الإمام، والجاهل عن العالم، وهكذا.

في لحظات المرض والألم والموت تتولد الرغبة في الحياة في اقتناء أعذب وأشهى المأكولات والمشروبات. في ممارسة الجنس بشوق علوي يحقق لذة

سماوية وليست غريزية فقط، يفجر كل تهديد فيما تمنحه الحياة وما تهبه لنا كل مرة ويريد القدر أخذه ونزعه إلى الأبد. التناقضات دليل على نسبية كل شيء، حتى مشاعرنا وأحكامنا التي نسجلها، دائما تُبقي في دواخلنا أشياء مِن حتى، مِن لو، مِن حبذا...

ليت، وحبذا، ولو، وحتى... كلها نسبيات لا شعورية في ذهن وسلوك كل من حميد وسعاد... في الرفض المطلق والرغبة الجامحة... فلن ننطوي لمجرد فشل أو توقف تجربة. ما تزال الطاقة، والقدرة، والحق، والرغبة، وآفاق وحياة ومستقبل. هذه مشاعر كل واحد منا، كلنا حميد وسعاد، كلنا تناقضات.

ستتجلى الآهات في قراءة هذه السطور، وربما صمت طويل بابتسامة هادئة. لكن هذه السطور هي سطور حياتنا التي نسلكها ونتمنى أن تكون بشكل صحي وليس مرضي.

...

هذه الآهات والتحسرات الفطرية نوعا ما، رافقت كلا من حميد وسعاد في طريق العودة، باتجاهين متباعدين مكناس شمالا وأكادير جنوبا. في طريق العودة، امتلكتهما مشاعر حنين لهذه الرحلة القصيرة داخل مسار الحياة، للحظاتها الجميلة التي محت كل آثار الآلام الماضية، والتي فتحت مجرى جديدا، حتى لا تبقى المشاعر منحبسة، آيلة للتعفن أو النتانة أو الضمور.

تطهير هو السفر، وإن كانت رؤية السفر تختلف من فرد لآخر. هناك من رفض جعل السفر مفتاحا للحياة، وقال بأن السفر هو تنفيس مؤقت، لأنه لا يغير الواقع الموضوعي الذي يعيش فيه الفرد والذي يعود إليه بعد انتهاء الرحلة. هروب مؤقت من واقع دائم. لن يكون السفر حلما ولا رحلة ولا سعادة. هكذا تتناقض الرؤى والتصورات مرة أخرى.

أيكون قدر هذه الرواية أنها مرفوضة في الواقع المعيش، أنها تصورات مثالية؟ رغم أن الناس تؤمن بأن السفر يُطوّل العمر ويشفي القلوب.

لن يكون تناقضا. هو تجاذب بين الذات والموضوع والواقع الذي يتفاعلان فيه. من ينتصر؟ منطق الواقع أم صمود الذات؟ لا جواب، ولا حكم على المعادلة.

...

عاد حميد إلى دياره منبسطا، حالما من جديد، مبديا ابتسامة لمحيطه كأنه ولد من جديد، كأن شيئا لم يكن. ما السر؟ السر في السفر إذًا.

أما سعاد ففي رحلتها عبر الحافلة من مراكش إلى أكادير لم تفارقها الابتسامة والرغبة في الكلام وذكر الجوانب الإيجابية في الحياة.

هل يدل هذا على تجاذب بين الطرفين؟ هل هو إشارة لفأل جديد في حياتهما؟ ربما لا وربما نعم.

هل يتزوج بامرأة تكبره بأربع سنوات؟ سيدة فقدت بكارتها قبل الزواج. هل يقسو قلبه ويعطي الأحكام الأخلاقية المُدينة لانحلالها وفقدانها لبكارتها وارتمائها في أحضانه بدون زواج؟ هل يتزوج بها ويتجاهل الأحكام الأخلاقية المتحكمة في تفكير وعقلية أسرته وتربيتها له، في مجتمعه الذي يعيش فيه والذي يتظاهر بالتفتح في كل شيء وفي نفس الآن التشدد والرجعية في الأفكار، في كل تصرف بحكم الدين والرجولة والأعراف؟ ربما يشفع له البعض مشروع هذا الزواج لكون الفتاة أو السيدة غنية جدا. هذه فرصته للاغتناء والتسلق الطبقي وعيش الرغد والنعيم. وكم من القيم المادية طغت على حساب القيم الأخرى.

تنامت هذه التساؤلات المتناقضة في تفكير حميد. في كل مرة يستحضر نماذج زواج متفتح، متجاوز للأعراف والأخلاق التقليدية:

لطفي الذي تزوج ب"بارميط"، المستخدمة في الحانة، وأنجب معها الأطفال وتربوا تربية جيدة وعاش حياة مستقرة سعيدة... أو الشعبي الذي كان معتادا على دُور الهوى، على بائعة الجسد الحسناء، والتي أَلِفها وألفته وشارك أحدهما

الآخر همومه ونواقصه وتكاملا في الرغبة وتوافقا فيها، حتى أصبحت زوجته زاهدة، ربيعة العدوية في القرن الواحد والعشرين.

لكن سعاد ليست بهذه الدرجة من التشبيه. هي احتقانات كل رجل داخل هذا المجتمع. دائما يضع صورة المرأة الطاهرة التي يريدها لنفسه داخل غلاف طهراني لم يمسسه بشر. سعاد مثل أي فتاة تعرف عليها. بنت المجتمع الذي ينتمي إليه. كم منهن فاقدات للبكارة.

تكررت المناقشات بين حميد وصديقه عزيز في جلسات متعددة. كان يرى في أفكار عزيز غربة عمّا ألفه وتربى عليه في أوساط الأسرة والمجتمع.

ـ الكل يتحدث عن البكارة. كم من فتاة مارست الجنس، استعملت اللذة الشبقية بكل فتحة وكل مركز إثارة في جسدها. أليست هذه بكارة مفقودة، أم هي إسالة الدم ليلة الدخلة وتظاهر بالطهرانية والشرف حتى مجيء العريس؟ وما سبق من اختراقات؟ أين هي بكارة هذه الاختراقات؟ انتظر، وما القول في البكارة الاصطناعية؟ لقد أصبحت البكارة ترتق حين فقدانها، إن لم نقل ترقع حتى يمر كل شيء كما يريد المجتمع. عندي شهادات من صديقة في مختبر طبي وأخرى مع طبيب مختص تثبت أن حالات الرتق والترقيع أصبحت كبيرة داخل المجتمع. ثم ما القول في بكارة الرجل؟

ـ أرجوك، دعني أستريح من أفكارك الغريبة. يجيب حميد. لا أريد تعقيد الأمور.

ستكون رسالة مكتوبة، يضع فيها النقط على الحروف، مستعيرا جملة صديقه اللعين عزيز. سيقترح عليها الزواج، لكن مع التذكير بوضعه المادي المتواضع، وحاجة أسرته له، بإشارة إلى أن الزواج سيحسن وضعيته المالية بإقامة مشروع مشترك أو شيء من هذا القبيل.

لقد تردد في بعث الرسالة لمدة أربعة أيام. لمَ لا؟ لنرَ ما النتيجة؟ "على العموم حتى إذا رفضت سأنساها، فهي بعيدة عن مدينتي".

فكرة أو لعبة؟ المهم أنه كان ينتظر الرد والجواب فيها. إنما الغرابة في نوعية الرد كيف سيكون؟ إذا قبلت، كيف يمكن تحقيق ما يريده بنجاح بدون مشاكل؟ إذا رفضت كيف ستصبح علاقتهما؟

لم تتسرع سعاد في الرد. بقي التواصل بينهما عبر الهاتف والمجاملات والتذكر لمراكش. هي كذلك أرادت مهلة للتفكير والرد برسالة مكتوبة مماثلة للأولى. شهران مرّا على الرسالة الأولى المبعوثة. تخللتها أسئلة كثيرة ودقيقة تتقن المرأة وقت طرحها ورنتها وحبكتها. يتخللها صمت طويل خلال حواراتها في بعض الأحيان.

تنامت مع الانتظار حساسية كبيرة للموضوع عند حميد. لم يعد يريد طرحه من جديد. ما هو مكتوب مكتوب ومقدر. قلّ الاتصال الهاتفي، بل توقف لأكثر من أسبوع. في صباح يوم خميس، جاء ساعي البريد برسالة، طرق الباب، وضع الرسالة في صندوق الرسائل.

الرســـــــــــــــالة

الرسالة:

عزيزي حميد، لم أستطع أخذ القلم بين يدي. منذ مدة وأنا محتارة في نوع الرد على رسالتك. كنت أخاف من أصابعي أن تخون عقلي فتطاوع قلبي، وتنساق مع المشاعر والأحاسيس التي أكِّنها لك.

في الحقيقة هذه أفكاري جعلتُ صديقتي نعيمة تنوب عني في كتابتها. فنعيمة كتاب أسراري، وهي مُدَرِّسة في التعليم، ولن أجعل أقوالي متعسفة على قلمها وكتابتها، فهي المحررة لهذه السطور:

مساء الخير حميد، كيف الأحوال؟ أعتذر إن اخترقت خصوصياتكما ككاتبة لهذه السطور. سلامي لعائلتك ولك خاصة. (نعيمة صديقة سعاد).

حميد

لوكنت تمنيت زواجا، لن أجد زوجا مثلك. لكن للأسف لا أستطيع الإقدام على هذا القرار.

سوف أترك صداقتي صلة وصل بيني وبينك. سوف أكون التي إذا احتجتها أو احتاجت إليك كنّا متلاقيين متساعدين.

إن تركيبة النسيج الاجتماعي لا تترك لي خيارا فرديا. بعد الحادث الذي وقع لي في محاولة النصب والاحتيال، عادت المكانة لأسرتي الكبيرة من ذوي رحمي. تبين أن هناك خصائص ثقافية تميز شخصيتي، كما تميز نوع الزوج الذي سيُقدَّر لي. لغتي، لهجتي السوسية تسكن كياني وأعماقي. هي ليست تمييزا ضد من يجهلها، ولكني أحتاج إلى سقاء كلامي وعاطفتي بلهجتي التي تربطني بالأرض وروح الوالدين وطفولتي وذكريات مسامع روايات وحكايات جدتي.

كلمة الحب التي أريدها، حروف منقوشة في أشجاني، محفورة أوتارا على نبضات قلبي.

لك قبلاتي ومودتي. لن أطيل عليك بكلامي، فأهم العوامل المرتبطة بصدق المشاعر هي التي سلف ذكرها. أما الباقي لا يهم.

لا تتصور حالتي، فهذه الكلمات انذرفت دموعا في عيني على خدي قبل أن تتحول إلى مداد مرسوم ومرسول على ورق داخل غلاف، في رسالة. إنني أقتلع نفسا، أحتاج إليه في استنشاقي وحياتي وتوازني لكي أترجم به صدقا ووفاء وشجاعة، ربما هي مدمرتي في دواخلي. لا أدري.

هي جمرات بركان ساخنة تتحول إلى برودة مخصبة لأجل الآخرين.

من كُتب عليها الصدق الداخلي: سعاد.

الكاتبة المعتذرة عن الاقتحام: نعيمة.

قرأ حميد الرسالة. ملأته نظرات حزينة. مع أسطرها الأخيرة ضغط على القلم المأخوذ من فوق الطاولة بين أصابعه حتى انكسر. انغرس جرح جديد انضاف مع القديم. لم يرِدْ لرفض طلبه أن يتحوّل إلى عقدة، لكن يبدو أنه أصبح في شباكها الآن. فهم جوابَ طلبِه. احتار في هذه التعابير التي وظفتها نعيمة بأسلوبها نيابة عن سعاد. سارع إلى كتابة رسالة في هاتفه المحمول لصديقه عزيز:

ـ جديد أكادير. عاجل جدا. نلتقي في المقهى على الساعة السابعة مساء.

كان حميد السبّاق إلى المقهى. رسالته في الجيب الداخلي لبدلته الفوقية. كأس قهوته في نصف استهلاك. أصابعه طارقة السطح الزجاجي للطاولة. رجله اليسرى في اهتزاز مستمر دال على توتر وعدم استقرار البال والحال.

ـ آش كاين؟ مالك مغوبش ومقلق؟ علق عزيز.

ناوله الرسالة في صمت وعيناه معوضتان عن الكلام بالنظر للشريط الوثائقي حول الحيوانات في جهاز التلفاز المسطح للمقهى.

قرأ عزيز بتمعن وصمت وابتسامات باردة. علق:

ـ هذا كلام الخبراء يا حميد. لم يكن على البال أن تتدخل نعيمة هذه بكتابتها المعقدة. نحتاج لثقافة وتحليل من أجل فهمه. كان الله في عونك يا مغرم يا مسكين.

ـ آش من مغرم، اللي مْكْتَابة دابا تجي. حتى أكادير رَاهَا بعيدة على دارنا. سالينا، يالله!

ـ لكن لا بأس إذا استمرت الصداقة. لو كنت مكانك لقمت بالرد عليها بجواب، حتى لا تبقى الكرة في مرماي.

ـ كيف أرد على الفيلسوفة؟ إلا إذا أردت أنت الدخول في هذه المعمعة.

الرد:

إلى سعاد،

تحية وسلام

وبعد:

أشكرك على الرسالة التي بعثت بها، وإن كنت قد تحفظت من إقحام نعيمة في الموضوع. لكن لا بأس، رغم أنها فلسفت الأمر، سلِّمي عليها وبلغيها تحياتي. سنبقى أصدقاء، سنعيش على نشوة الذكريات الماضية والآتية.

إلى اللقاء.

الإمضاء: حميد.

والآن الكلمة لعزيز:

إلى نعيمة

تحية وسلام

وبعد

يشرفني أن أكون مشاركا في رحلة الود هذه، وسفيرا مفاوضا في سماء قيم الصداقة والعشق والتعارف.

كما يشرفني أن أكون قارئا لرسالة قيمة، شاركت نعيمة في صياغتها، تدخلت بأسلحتها المعرفية وأسلوبها الجذاب والماكر إيجابيا.

تأتي كلمتي مع الاحترام لسعاد ونعيمة. مع الاحترام لحق الإنسان في اختيار مبتغاه وحريته في هذا الاختيار. مع الاحترام للمستوى الثقافي الذي وظفت به نعيمة الكلام. فقد استفدت كثيرا وتعلمت منه جديدا.

سيكون كلامي موجها لنعيمة لأناقشها إشكال الهوية والشخصية. لأطرح مدى نسبية المواقف وبالتالي مدى صلاحيتها في الاتخاذ.

الحق حق، لكن مناقشته حق كذلك، دون أن يعني ذلك تعسفا على هذا الحق.
لقد وضعني كلامك عن اللغة والهوية والثقافة والعاطفة أمام فضول يريد صاحبه اختراق هذه الدائرة لتجريبها وتمحيصها واستنتاج آثارها. كم هو جميل الصدق الداخلي، فهو سعادة قلبية، كنز ذهبي لا يصدأ.
في الحقيقة حينما أستحضر أگـادير، أنا الساكن بمدينة مكناس، أضع أصبعي فوق الخريطة، وأضع همسي على نبضات قلبي وعواطفي الداخلية. أزداد شوقا لزيارتها ومعانقة بحرها ورمالها وجمالها.
حينما أستحضر أگـادير، أستحضر الزلزال الذي وقع في بداية الستينيات، أتفاعل وجدانيا، فيُحدث التفاعل اهتزازا وشرخا، وأتألم مثلما تألم الضحايا والناجون من الكارثة. لم يكن الزلزال لأهل سوس فقط، كان لنا كمغاربة أجمعين فاجعة. لم يمت فيه أهل سوس فقط، مات فيه كذلك مغاربة من مناطق متعددة ومختلفة. تحملتْ أسرٌ كثيرة الكارثة، وكانت*تذرف* دموعا لأجل كل الضحايا قبل ضحاياها.
مدينة أكاديرشجرة أركان مورقة، مزهرة، مثمرة، معمرة، شامخة. إنني أرى في سعاد شجرة أركان. ماذا لو لم تورق، لم تزهر، لم تثمر؟ لن تعمّر إذًا. ماذا لو أنها لم تجد لقاحها بين رياح أكاديروأرض سوس، يبست، تعودت، تقشرت؟ تحطبت ؟ ماذا لوكان لقاحها بين ربوع المغرب؟ اخضرّت، وأينعت، تجددت، تشكلت وتفرعت.
الحق حق، لكن الانغلاق مَحق بِحقّ، للشخصية سحق، يقصر معه الزمان، ويشحب معه المكان.
مدينة أكادير، سوسي في كل مدينة، في كل حي، بقال متواصل مع كل مغربي.
ماذا لو انغلقت التجارة؟ ذهب ما ذهب من اقتصاد وتجارة.
ما القول في ارتماء كل مغربية بين أحضان أوربي في زواج شكلي لأجل الفيزا والمال والهجرة؟ ما القول؟ ما مصير الهوية إذا؟

هويتنا واحدة يا نعيمة ويا سعاد. اجعلاها بذرة وزهرة ملقحة للأجيال، للأولاد والأحفاد، مُشكلة لحضارة المجتمع وللوطنية المشرفة. اجعلا ذوبان الذات لأجل المدنية الحديثة لأجل الهوية الكبيرة. فمع الانغلاق سيرجع الكون كله إلى نقطته في بدايته الأولى.

إلى نعيمة، تحياتي وأفكاري. إلى سعاد احترامي وتقديري.

الإمضاء: عزيز صديق حميد.

تجدان أسفله الإيميل الخاص بي إذا أمكن التواصل عبر الإنتريت. سيكون الأمر أسرع في التواصل.

sami-.-33@hotmail.fr

حينما ذيل عزيز رسالته داخل رسالة حميد، إلى نعيمة عبر سعاد، حينما جعل عنوانه الإلكتروني، كان على علم بما يريد. تفاعل فكري جديد أراده مع نعيمة. مناقشة فكرية وثقافية توَلّد الأفكار، تكسر المجهول، وتجيب عن الأسئلة التي ستطرح كل حين. هو تواصل بشري إذا. قد يأخذ شكلا مجردا في العالم التواصلي الجديد المجرد والخطير. هذا الاختراق لنسبية الزمن والمكان، وتقليدية الاتصال والتواصل. لا انتظارية مع هذا العالم الجديد. هناك سرعة في الإنجاز والتحقيق.

كان حدس عزيز مصيبا في التذييل بالعنوان الإلكتروني. رسالة عبر الأنترنيت أو الشبكة العنكبوتية، موقعة ب(أغانيم):

تحية وسلام

إلى الأخ عزيز

أنا نعيمة، صديقة سعاد، صديقة حميد

طرحك ومناقشتك لموضوع الهوية وغيره كان زحفَ جزرٍ بعد مدٍّ اقتلع نباتا من شاطئ رملي، ملقيا به في مغامرة محيط جديد.

لقد نمت تلك الليلة حين قراءته مغمضةً عينيَّ، لكن عقلي في عمل مجند جديد. تشبيه شجرة الأركان، عاطفة الزلزال. خيوط شقاوة تفكير جديد. من هذا الذي يخترق برج أفكاري وثوابت ذهني المرسومة داخل كياني؟

إليك عنوان مراسلتي عبر الأنترنيت، والتواصل السمعي البصري عبر شبكاته كذلك. لنرى ما الذي سيحدثه هذا الطوفان مع الطوفان. في مد وجزر تسونامي متجدد. هو اختراق جلجاميشي لأسرار غابات الحياة والتاريخ، للإتيان بالمجهول الذي أراده إكسيرا. لكن، أي إكسير؟ لن أطلب فيه الخلود، بقدر ما سأطلب فيه حقيقة الخلود، كل خلود، إن كان هناك خلود.

توقيع الرسالة "أغانيم"، الطوفان الآتي من الجنوب.

نعيمة صديقة سعاد صديقة حميد. ***a.ganim@hotmail.fr***

ما كان؟ كيف كان وقع الرسالة على قارئها؟ ليست أي رسالة. لا يمكن ترتيب البيت الذهني حين اختراقه بالطوفان. كانت تلزم لملمة وتصويب. طيب. عاود عزيز القراءة لمرتين أو ثلاث، بل لعشرات المرات، حيث إن كل جملة لا تنقله إلى أخرى إلا بعد حين، ولم يجب في الحين.

ـ ألو حميد. هل من التزام الليلة عندك؟ موعدنا الساعة التاسعة مساء. أنتظرك في منزلي. إلى اللقاء.

هي جلسة خمرية إذا. لكنها كثيرة في الكلام، قليلة في كؤوس المدام. عاود فيها تفاصيل رحلة حميد والحديث عن سعاد وأسباب تفكيره في الزواج منها وبها، واحتمالات تعليل ردّها ورفضها... كأنها جلسة عيادية، كانت أشجان حميد هي الخاضعة لمخاضها وغربلتها، بالنكات، بالضحك، بالتحسرات، بالضرب على الطاولة. كانت تشخيصا جديدا لكل مسار حياة حميد، بدمع جرى على فراق الوالد في حين، بترقب متخوف من المستقبل وأحلامه وطموحاته. كانت كرسي اعتراف وحقيقة وإعادة توازن داخلي وغسل بل تطهير دفين:

ـ لقد أخطأت في طلبي الزواج من سعاد. ربما لعبة قمت بها في الكلام. لكن ما كان يجب عليّ القيام بها. على العموم، لست منزعجا ولا متوترا. فهي في صورتها ومرتبتها كما الآن، كما كانت سابقا. أحترمها وأحتفظ بصداقتها. إنما جلستك الخمرية يا إبليس يا لعين أرى فيها تخطيطا جديدا!

ـ لقد دخلت في الخط مع نعيمة. مجرد تواصل عبر الأنترنيت للحوار والمناقشة.

ـ ممم، مصائب قوم عند قوم فوائد.

ـ أي مصائب يا لعين. قبل قليل قلت لا مشكلة عندك.

ـ أتمنى أن تبتلِعَك شباك سوس وتغرقك في بحارها. فقهاء سوس وأعشابها الأقوى في العالم.

ـ آمين يا مرضي الوالدين.

ـ هات كأس الروح واسقِني الأقداح.

ذهب جمعُ الاثنين في غناء: هات كاس الروح واسقني الأقداح... تعالى صوت حميد بالموال، وعزيز يطرق بأصابعه طاولة الغرفة بإيقاع الموال المتلاعب بعقلي وصوتيْ النديمين.

ليست الحياة إذا كلها أحزان. يبتسم عزيز ويغني ويطبل ويفكر في هذه الأفكار. هي لحظات فرح، تجريب لأجل المستقبل، ابتسامة مخترقة جليد دمع سال. هكذا تستمر الحياة. هي الحياة.

دعوة على الخط عبر ال (م س ن)، لأجل قَبول متواصل جديد. الاسم المستعار أ. غنيم:

ـ سلام.

ـ سلام.

ـ المرجو استعمال اللغة العربية.

ـ أوكي.

ـ أنا نعيمة من أگـادير.

ـ مرحبا، تحياتي. كيف الأحوال؟

ـ الحمد لله، وأنت؟

شكرا، كل شيء تمام.

ـ من فضلك عزيز، عندي سؤال.

ـ تفضلي!

ـ ما رأيك في التواصل عبر الإنترنيت؟

ـ سؤال عريض، لكن سأحاول الجواب عنه، ومعذرة إذا استرسلت في الأجوبة.

ـ تفضل !

ـ في البداية: كل له تجربته الخاصة وأهدافه التي يبحث عنها. لكن ملاحظات عامة تبدو في استعمال الشباب لهذه الشبكة. بجانب الاستعمال المهني والإداري والعائلي والتعليمي، هناك استعمال شخصي يتعلق بالترفيه، بإنشاء تعارف جديد، ببحث عن الجنس الآخر ذكر أو أنثى. المشكل أن القيم اختلطت. هناك من يبحث عن تواصل محترم، صداقة، زواج. لكن هناك من همّه هو تحقيق شهوة أو علاقة جنسية عابرة أو متعددة. الأمر سيان بالنسبة للذكور والإناث. ما رأيك فيما قلت وكتبت الآن؟

ـ الملاحظة موضوعية، لكن أؤاخذ على الشباب اليوم هذا الاستعمال العبثي للأنترنيت. الاستهلاك المُهْدِر للوقت فيما لا منفعة فيه غالبا. أرى أن ما يعبر به الشباب من ألفاظ دال على سقوط القيم الأخلاقية وغيابها، دال على نقص في التربية. عندي ملاحظة عزيز: هناك حلقة مفرغة، ناقصة، بين التربية في البيت وسلوك الأولاد في الشارع العام. لا أدري هذا التناقض كيف أفسره وأحلله؟

ـ صحيح الملاحظة موجودة. هناك مدرسة الشارع. الشارع المغربي مثلا يعني المجتمع، العلاقات الخارجية، التواصل الفردي والجماعي، البسيط والمركب. قوانين خفية تحكم تشكل اللغة المستخدمة في الشارع، الأخلاق المتداولة والسلوكات الممارسة. إذا كان عندكم هر في المنزل وخرج للزنقة أو الحي لساعات، سيجيئ بعادات جديدة مخالفة لما تعود عليه داخل البيت. المسألة معقدة إذا.

ـ طيب عزيز، ما علاقة الأنترنيت بالشارع؟

ـ أتمم من فضلك ما بدأته من تحليل.

ـ تفضل!

ـ قلت المسألة معقدة. من جانب، تراكمات الشارع الثقافية واللغوية في العادات والتقاليد والأخلاق والسلوكات كبيرة جدا. بدليل أن التراث الشفهي محفوظ في الشارع، في حلقة الفرجة، في حكِم الحرفيين، وتعليقات التجار وغيرهم. هذا يعني أن الفرد لا يتعلم كل شيء داخل الأسرة، يحتاج إلى معرفة جديدة يتواصل بها مع المجتمع الذي يعيش فيه. أعود إلى سؤالك، حول العلاقة بين الأنترنيت والشارع. أظن أنهما دائرتان خارج رقابة الأسرة. الفرد أو الشاب محكوم بتوجيهات وأخلاق تحُدُّ من رغباته وتوظيف حواسه وتعبيره. كلما سنحت الفرصة جرب الجديد في الكلام والتواصل لمحاولة تحقيق رغباته وميولاته. الأخطر أن دائرة الأنترنيت أكثر تجردا وبعدا عن الرقابة، ربما الشوارع في بعض دوائرها المغلقة كالمدن العتيقة مثلا، تكون امتدادا تربويا للأسرة. الكل يراقب، ينصح، يربي. لكن الأنترنيت، هذا الانتماء العالمي، لا لغة له، لا لون

تربوي له، لا رقيب مباشر له. يمكن أن نناقش مجموعة من الظواهر الانحرافية عند الشباب بسبب الأنترنيت. فيما بعد ربما. أظن أننا استغرقنا حوالي الساعتين في هذا اللقاء. ربما نترك المناقشة لوقت لاحق. في الحقيقة، أتعمّد الحد من استعمال الأنترنيت، أقصى حد يوميا هو ساعتين، حتى أحافظ على تواصلي الواقعي مع البيئة والمحيط الذي أعيش فيه.

ـ طيب عزيز، شكرا على هذا اللقاء، وإلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء+ ابتسامة+ وردة حمراء.

كان التواصل الجديد على الساعة الثامنة مساء، بعد أ ن سبق لهما تبادل أرقام الهاتف وتجديد هذا الحوار بعد يومين من الأول. كان تفكير عزيز في البداية في نوع التطور الذي يمكن أن تعرفه العلاقة الجديدة والتعارف الجديد. لكنه بعد ذلك أبعدَ كمْ من احتمال، خصوصا بعد أن صرحت له بكونها على علاقة ملتزمة مع شخص ما، وهي الأم لطفلة صغيرة في سن الثامنة. لعل تجربتها في الحياة أعطتها تصورا محددا وواضحا لما ترغب فيه وتريد فعله. كانت بعض هذه الأفكار حاضرة بطريقة غير مباشرة في التواصل الثاني الذي أجراه مع نعيمة. لم لا، محاولة فهم شخصيتها وأبعادها.

ـ مساء النور.

ـ مساء النور.

ـ كيف الأحوال؟

ـ الحمد لله. نعيمة، ناقشنا فيما سبق ظاهرة "الأنترنيت" و"الشات" عند الشباب.

ـ نعم، كان النقاش مفيدا، رغم أننا لم نتممه. ربما تقيّدك مع الزمن المحدد لاستعمال الأنترنيت قد حد من الاستمرار فيه.

ـ ما العمل؟ لكل شيء إذا ما تم نقصان وتمام، لابد من ترك شيء ما لنتناوله من جديد.

ـ صحيح. وأنت عزيز، أية استفادة أخذتها من الأنترنيت؟

ـ سؤال صعب يا نعيمة. لا أخفي أنني كنت أهدر الوقت والمال في البداية. لكني الآن، أصبحت متحكما فيهما معا. بالنسبة للنيت أستغله في مجال التعليم والتواصل الجمعوي، إضافة إلى القراءة في المجلات الإلكترونية. أما استعمال الشات، فلنقل إنني قلّلت منه، باستثناء حينما أحدد موعدا مع طرف ما.

ـ والفتيات، أليست هناك فتاة في حياتك؟

ـ لا بد للمرأة ان تسأل عن المرأة، فضولكن طبيعة مثل "الويز" في م س ن.

ـ لا تفر من السؤال، عزيز.

ـ ماذا أقول: ليست هناك امرأة؟ بالطبع لا. موجودة. أنا على علاقة بفتاة فرنسية، تعرفت عليها من خلال اللقاءات الجمعوية في أوراش متعددة، تزورني غالبا مرتين أو ثلاث في السنة. لكن العلاقة معها ليست بالطريقة المغربية طبعا.

ـ كيف؟ وما لها الطريقة المغربية؟ هل عندها هي الفرنسية شيء مميز؟

ـ لا تقلقي نعيمة. هي لم تزاحم المغربيات في شيء. بالعكس هي تتمنى أن تكون عندها مجموعة من الإيجابيات تراها في المرأة المغربية، لكن بحكم تكوينها الفرنسي والغربي تجد صعوبة في تحقيق ذلك.

ـ لا أفهم عزيز.

ـ حتى أنا لا أفهم كل شيء مما تريده. لكنني أحاول الفهم والشرح لك ما استطعت.

ـ هل تحبها؟

ـ تعلمين، كنت أنا من حضّر رزمانة الأسئلة حول علاقتك والتزامك بصديقك، لكن انقلب السحر على الساحر، أصبحت أنا المسؤول منذ البداية.

ـ هل تحبها؟

ـ حاضر سيدتي، سأجيبك، ولكن ليس بكلمة واحدة.

ـ ماذا؟ هل الحب فيه كلمات؟ تحب أو لا تحب؟

ـ أشعر بالاستفزاز يا نعيمة، لن أجيب بكلمة واحدة.

ـ تفضل يا عزيز، عبِّر بكلامك وسطورك، ولكن لا تَته في غابة أشواك أو أشواق مكتظة، كن واضحا في كلامك.

ـ حاضر سيدتي. سمعا وطاعة، يا امرأة دوّخت الدنيا، ودوخت عزيز بسؤالها.

(إرسال إشعاع نجومي عبر الام اس ان). بدون تعليق.

ـ تسألينني عن الحب يا نعيمة، وأتساءل أنا ما الحب؟ كيف تتصورينه؟ كوني على يقين بأن كل واحد منا يملأ الجواب أو خانة الجواب بدرجة ما، بدرجة ما يحب وما يرى أنه حب أو يرغب فيه.

ـ ها أنت تتيه يا عزيز.

ـ قلت لك علاقتي بالفرنسية فيها حب، لكنه حب واضح، بسيط، بدون قيود، بدون وعد زواج. حاضرة في قلبي وعقلي ووجداني. وأنا حاضر كذلك معها فيما ذكرت. هي علاقة لا تعرف ما سيقع، ربما تتغير ظروفنا الموضوعية والشخصية فتجعل التقارب أكثر، وبالتالي الحب أكثر أو التباعد أكثر، وبالتالي الحفاظ على الذكرى والابتسامة، والتوادع الوديع الجميل الذي يُسجّل بآخر لقاء، آخر قبلة.

ـ توقف عزيز.

ـ نعم!

ـ شكرا لقد فهمت بعض ما تريد قوله. لكنني لا أتفق معه كثيرا.

ـ أعلم. فهذه البساطة غريبة عن ثقافتنا ومجتمعنا، وعن ثقافة جل العلاقات. هناك مثلا من يعرف كيف يلتقي ولا يعرف كيف يفترق. اللقاء بالود، الفراق بخصومة. لكن هذا لا ينطبق على الجميع طبعا.

ـ ألا تنويان الزواج؟

ـ لا زواج مرتقب يا نعيمة. فرق بين تفكيرنا المرتبط بالإنتاج البشري وتفكير الآخرين المرتبط بإنتاج إبداع وفن. إبداع الشخصية الإنسانية. نحن نتساءل فيما بيننا: كم ولدت؟ كم أنجبت؟ وهم: كم أبدعت وخلّدت باسمك وعملك وفنك؟ قبل كل شيء.

ـ أليست لك علاقات مع مغربيات؟

ـ لن أجيب يا نعيمة. أكثرت عليّ من الهجوم بهذه الأسئلة. دورُك الآن في استقبالها. مستعدة؟

ـ مستعدة يا هرّاب. أنت مثل سمك السردين تنفلت من القبض كل حين.

ـ ما الحب عند نعيمة؟ إشارة "وييييييييييز" بعد تأخرها في الجواب.

ـ معذرة، كنت أفكر في سؤالك. تعلم، يحتاج الإنسان إلى لحظات ليسأل وليعلم ما هي دواخله وحقيقة مشاعره. الحب قيمة سامية نعم، صدق وشوق ورغبة. الحب لله، للأولاد، للوالدين، للوطن. ارتباط بالآخر يجعلك لا تقدر على فراقه،

حاضر معك في غيابه. ظل مرافق قد يظهر باشتياق عند كل منعرج أو زاوية طريق. الحب ليس هو ممارسة الجنس. الحب علاقة صادقة لا خيانة فيها لا كذب. فقدت هذه القيمة في دواخلي، أو قل إنني لا أجدها في حياتي الآن. عوّضت البحث عنها بجعل الحب لابنتي الصغيرة، فهي كل حياتي، وإن كنت أشعر بحدسي أنها زهرة سائرة في السموق والازدهار وستنفلت مني بقطفها من طرف آخر، لا أدري ما أؤمن به؟

إنني لا أعيش علاقة حب مع رجل آخر الآن. صحيح عندي علاقة مع صديق. لكنني أرفض جعلها موهمة بعالم حب قدسي. لحظات منظمة للقاء، لتناول عشاء، لسؤال يومي عن الآخر، لتلبية رغبات جسدية ونفسية، لتبادل هدايا... إلا الحب بمفهومه الحقيقي، لأنه يتطلب تضحية. وأنا أخاف من تضحية جديدة أكون فيها ضحية مرة ثانية. كما أخاف على ابنتي من أي انعكاس سلبي على تربيتها داخل علاقة جديدة.

في الحقيقة أنا داخل شباك هذه الأمور، لا أجد طريقة لفكها. لا أدري، انحبست دموع في عيني وأنا أكتب هذه السطور. حزن داخلي فتحت بابه، كان مسدودا، منسيا لمدة، لكنه كان ضاغطا بقوة تؤثر على أعصابي وأشكال توتري التي قد تنتابني في العمل أوفي العلاقات الاجتماعية. ربما الآن في هذه الكتابة والتواصل معك وجدت تفسيرا لهذه التوترات. أنت ظالم يا عزيز.

ـ لماذا؟ حرام عليك، قد أكون ظالما إذا لم أكن صادقا في قراءة أفكارك ومعرفة ظروفك وتفهمها، لكنني أحترم كل ما تقولينه، وكوني على يقين بأن درجة التقدير والتقديس تزداد حينما يفتح لك الآخر أبواب أسراره ودواخله.

ـ صحيح، متفقة معك. كنت أمزح لأخفف عن دواخلي بقوْلي إنك ظالم. لكن كن صلبا. على أية حال أنا امرأة رغم قوة شخصيتي أجد لحظات ضعفي أمام حاجتي للرجل في حياتي. ربما تخيلتك وتَمَثَّلتك بما تريده دواخلي، تعويض مجرد قد يكون وهميا نسبيا. هذه حقيقة أفكاري.

ـ لا تنسي، لقد سألتك سؤالا واحدا فقط، بينما أنت أمطرت أسئلة كثيرة.

ـ أنا أمطرت أسئلة كثيرة، لكن وادي أجوبتك كان نهرا موجها محكما، بينما جوابي كان بحرا في مد جارف أخرج كل محتويات أعماقه ومرجانه. سأنال منك يا عزيز فيما بعد، لا أدري، المرأة تحتاج للكلام أكثر من الرجل. صحيح أم خطأ؟

ـ ربما. لقد كان حوارا شيقا نعيمة.

ـ أظن أنك تبحث عن طريقة للانفلات والهروب من جديد؟

ـ نعم، سأستيقظ باكرا غدا. نبقى على اتصال.

ـ طيب إلى اللقاء.

"وردة حمراء".

ـ إلى اللقاء.

"باقة ورود".

تواصل جديد:

ـ وقعت مشكلة اليوم.

ـ ما هي؟

ـ صديقة لي في العمل على وشك الطلاق.

ـ ما المشكل؟

ـ السبب إدمان الزوج على الأنترنيت. هي قالت ذلك، وهو قال إن زوجته مدمنة على المسلسلات والأفلام والسهرات الفنية. حينما يدخل تكون منشغلة عنه حتى ينتهي ما تشاهده... ثم تأتي لتحكي له عالمها، يكون هو قد استغرقه الأنترنيت والبحث فيه. هو موظف في البنك ويدرس لنيل دبلوم في المعلوميات والبرمجة. قد يبقى مستيقظا حتى الثالثة صباحا أمام شاشته... على العموم، كلٌّ يردُّ اللومَ على الآخر. لم يعد هناك تواصل بينهما. انطفأت حرارة المشاعر بينهما. برود جنسي غالب الأحيان. كل في عالمه وأحلامه... هذا ما استنتجته.

ـ المشكل واضح. لمَ لا ينقطعان عن التلفاز وعن الأنترنيت. أظن، لو تم قطع التيار الكهربائي من منزلهما لعادا للحياة الطبيعية، وعادت الحرارة بينهما بدل حرارة الكهرباء.

ـ من فضلك عزيز، لا تعبث بالموضوع. أنا فعلا قلقة على صديقتي.

ـ أتفهم المشكل. والأسباب واضحة. لو أن الأنانيتين تنازلتا عن عرش غرورهما وساديتهما، لحُل المشكل. اقترحي عليهما سفرا لأسبوعين مثلا في منطقة لا يستعملان فيها التلفاز والإنترنيت وانتظري النتيجة في التواصل والتوصل، إن أصبح الأمر طبيعيا بينهما. أتعلمين، حينما ينقطع التيار الكهربائي في منازلنا، نجتمع حول شمعة. تنفتح آذان الإصغاء للآخر. نسمع حكايات الجدات والأسرة وتاريخ العائلة. نمعن في الابتسامات الصادقة لبعضنا البعض. وفجأة يعود التيار الكهربائي، فنعود للتيه مع عوالمنا الداخلية الفردية...

ـ صحيح. أتظن أن السفر مناسب؟

ـ أظن، لو ذهبا إلى مخيم للاصطياف صيفي أو شتوي بجبال الأطلس لحُل المشكل. هو توتر عابر، رغم كونه عاصفة قد تجرف بستان الحياة الزوجية.

ـ عندك حق. سأحاول إقناعهما بالفكرة. لكن قل لي:

ـ نعم.

ـ ألا يُسبب لك استعمال التقنيتين مشاكل حياتية؟

ـ بالطبع تقع مشاكل. على الأقل يحرق الطاجين الذي أعده بعض المرات. فأبقى بدون وجبة أكل. المسألة موضوعية. لكن ما يؤسف له هو الظواهر الجديدة التي رافقتهما في هذه المرحلة الراهنة.

ـ كيف؟

ـ بدءا بالإنترنيت، انحرافات الشباب السلوكية الخطيرة صاحبت استعماله. أولا العالم الشبه وهمي عند جل الشباب. ساعات كثيرة أمام الشاشة وعالم مجرد يبعد عن الحياة الواقعية وعن حميميتها. لقد أصبح العالم مائدة مستديرة وليس قرية صغيرة فقط.

ثانيا، التحولات السلوكية الشاذة جنسيا عند الذكور والإناث. انتشرت العلاقات السحاقية واللواطية وأشكال الاستمناء عبر كاميرات الأنترنيت أو صوتياته. مجموعة مهيجات تجعل الغرائز عابدة للتقنية، تعيش معها. فقدان الحياة الطبيعية والحقيقية والمناعة الكافية لهما. وحتى التلفاز ومسلسلاته المكسيكية والتركية.

ـ ما لها؟ تعجبني مشاهدتها.

ـ نعم، هي عالية الدقة في الإخراج والتصوير، واختيار النماذج الجمالية الرفيعة في الممثلين والديكور وكلمات الحوار وجمل تعبيره، والأجمل أنها أصبحت بلغة دارجة قريبة إلى عوالم وجداننا. كل هذا أتفق معك فيه. لكن المشكل فينا نحن، في مستوى تكويننا وثقافتنا وذوقنا وعيشنا، وواقع علاقاتنا وتوتراتها ومشاكلها المسكوت عنها، والمُتظاهر بتجاهلها وعدم وجودها. كل هذه الأمور

تتفجر بالمقارنة المشاهداتية. تحيي المشكل وهو رميم، فتعيده قضية ساخنة تقام عليها القيامة، ويبحث لها عن أتفه الأسباب للتحكم فيها. حوار المسلسلات ثقافة وإبداع، وكاتب الرواية أو القصة أو السيناريو...، اختارَ له نموذج الأنثى ونموذج الذكر الذي يشتهيه كل طرف، سواء المرأة أمام تلفازها، أو الرجل في جلسته القهوجية أمام الشارع العام. شبه استمناء بصري، يتحول إلى تفاعل غددي، يصل إلى عمق الشهوة والرغبة والإرادة المحركة لها. فيطلب التلبية بالطريقة المنعكسة على الحواس والغدد أمام التلفاز أوفي الشارع العام. ربما حتى تغيير طريقة الجلوس حين المشاهدة انعكاس. حتى إن إطفاء الأنوار حين ممارسة الجنس قد ترافقه أحلام يقظة يجعل الجسد في تفاعل مادي والذهن في سفر خيالي وصور وهمية.

ـ ربما أتفق معك في بعض ما قلته.

ـ هذه وجهة نظري، ربما أصيب أو أخطئ. لكنني الآن أريد تحويل الحوار إلى نقطة هامة، ربما هي التي جذبتني لنعيمة لكي أتواصل معها.

ـ ما هي؟ وماذا تُحضِّر له الآن؟

ـ في رسالة سعاد لحميد، تتذكرين حينما جعلت الحب مرتبطا بالتعبير باللغة الأم. في كون سعاد تريد حبيبا يتكلم السوسية حتى تشعر بكوامن إحساسها. هل هذه فكرتها أم فكرتك؟

ـ لا أدري ما تبحث عنه. أصبحت أحتاط من أسئلتك. لكن ببساطة ووضوح، هي فكرتها، عبّرتُ عنها بالقلم، ربطتها بالهوية والشخصية، حتى تكون طبيعية. رغم أنني قد لا أتفق معها ثقافيا. بالنسبة لي المستوى الثقافي هو ما يطور الشخصية ويجعلها أكثر عالمية وكونية. صديقي، مهندس معماري من مدينة فاس. نطقه بالقاف الرقيقة غريب عن سوس وماسة. لكن تكوينه العلمي واحتكاكه بالثقافة الغربية والحداثية أيام دراسته وتكوينه بفرنسا، كل هذا جعله شخصا آخر، كما جعلني شخصية أخرى. كلانا ينتمي إلى عالم متجرد عن ثقافة البيئة التي نعيش فيها. لن أطيل. سألتني عن الفكرة، قلت لك هي فكرتها.

أصبحت أخاف من الكلام أكثر، يصبح بوحا، يصبح مختبرا، تصبح أنت المشرّح لسطوره، المُقلب لفقراته وصفحاته.

ـ مقبول منك الخوف، مرفوض منك التوجس مني. لكن درجة الاطمئنان تساعد على التعبير والوضوح فيه. فقط ألاحظ أن علاقتك ليس لها بُعد حب وزواج، هناك فرق بينها وبين علاقة حميد وسعاد.

ـ مصيدة بلاغية جديدة يا عزيز. حرام عليك.

ـ يعجبني تظلم الأنثى في رقته وشاعريته. هو شكل من أشكال التمنع.

ـ سأفر الآن، أنا خائفة. كريمة تناديني.

ـ ممم، الآن انت الفارة. طيب. ما دامت كريمة التي تنادي لا بأس. إلى اللقاء. قبلاتي لكريمة.

ـ إلى اللقاء.

راودته فكرة السفر من جديد. دائما يرى في أحلامه أن السفر ملاذه ومنقذه ومخرجه من همّه ومحقق لآماله. هكذا فكر في الهجرة السرية إلى أوربا، وإسبانيا بالتحديد. فقد تراكمت ضغوطات النفس والواقع. لم يعد يطيق المحيط وما يفرضه من تحول في القيم وما يتطلبه من دخل مادي يعطي لصاحبه تقديرا اجتماعيا، وهو مجتمع لا يعطي قيمة إلا لأصحاب السلطة والجاه والنفوذ.

لا مفر من المغامرة. ستكون هروبا من النفس التي أصبحت بوادر الجنون تلمسها بالرغبة في الإدمان على كل شيء يجده أمامه بالمقهى. ستكون هروبا من تجربتين عرقلهما الظرف المادي الذي يعيشه حميد. خطوة تقفز على كل جدار يقف حاجزا بينه وبين الحياة. وقد لا تكون الحياة سعادة إلا بتحقيق أحلامها. فأين هي هذه الأحلام؟ وأين هي هذه السعادة؟ السفر؟ وكيف سيتحقق كل هذا مع السفر؟ إنها هجرة سرية، فيها من المخاطرة واحتمال الضياع.

أ لن تكون المغامرة هذه أفضل من حل الانتحار المحرّم من طرف الشرع؟ كيف نعيش العذابات بين تحريم ومعاناة واقع؟ لم لا يساعدنا القدر على تسيير أمور حياتنا؟ أم هو اختبار لنا في امتحان حتى ننجح فيه؟ ما لهذا الامتحان جحيم إنجاز؟ حتى في صغره لم يكن حميد يتحمل فكرة الامتحان. كلما وصل وقت امتحان وجدته يفر منه إلى لعب أو مرض أوأي شيء يبعد عنه الانجاز. لذلك لم يتمم دراسته مثل أصحابه. لذلك كانت ظروفه صعبة أمام امتحانات الحياة هذه. طيب، ما العمل؟ السفر؟

الوجهة طنجة. الطريق غابة مطلة على مشارف الشاطئ. الانتظار لأيام حتى تنطلق رحلة الجحيم أو الموت. لا يسافر سوى الرجال. ولا يقدر على هذا السفر سوى الشجعان. يجب أن تكون الكبد، رمز الجلَد والصبر والتحمل، صلبة حتى تستطيع خوض هذا السفر، وحتى تستطيع النجاح في أوربا.

قبل يومين من انطلاق الرحلة ـ السفر، ومن تربّصه داخل الغابة مع المتربصين لعبور البحر في اتجاه "جنة أوربا"، جمَعه قدَر عجيب في حانة رخيصة بإحدى أزقة طنجة. تمنى لو أنه لم يواجه مثل هذه التوترات. مجرد كلام متبادل، لكنه يمحق دواخل الإنسان، بالخصوص المعني بمضمونه:

ـ تريدون جنة أوربا. مثلكم مثل بعض اليهود الذين يريدون جنة فلسطين. وها هم يبنون قبرهم الجماعي حتى تنفجر قنبلتهم وتأتي ساعتهم. لم تكذب أسطورتهم، فجهنمهم من تحت أرضهم. ما داموا سيغرقون ويدفنون فيها، إلا إذا طردوا من جديد. أما أنتم فلستم لا بيهود ولا بأصحاب جنة ولا جحيم. الكل يفكر في الهجرة. والبلاد من يعمّرها؟ والأرض من يحرثها؟ لكن الحق يقال، اذهبوا أيها الأغبياء، فأنتم تخرجون من هنا وهم يدخلون من هناك لخيرات بلادكم. أنتم مجرد طعام للحيتان البشرية. بالحق، من أكلم أنا؟ أنتم مجرد أغبياء.

ثارت همة حميد. يكفيه ما يعانيه داخليا. يكفيه أنه ترك عمله بالجماعة المحلية، والذي أدخله في نظام ديون علقت راتبه الشهري. حتى ما يربحه من سهرات الأعراس لم يعد يكفيه لمستلزمات السنة ومصاريفها. حتى إن ضميره لا زال يوقظه بناقوس نبضات وضغط دم يوجع قلبه. فما لهذا الثرثار بكلام السياسة والجامعة يزعج آذانه، وهو الذي يريد أن ينسى ما فات وما ينتظره في سفر تلو سفر؟

ـ أُسْكتْ آ الشريف وهنينا من الصداع! باراكا علينا الهمّ الذي نحن فيه...أصبحنا يهود عندك. وما لْنا احتَلّينا الأرض ديال مالّيها؟

كاد شجار ينشب بين الطرفين. وانتصر في التفرقة بينهما البعض لرأي حميد، وطلبوا من المتفلسف أن يعطيهم راحة البال ويصمت قليلا. ما كان سببا كذلك في رغبة حميد بالانصراف والذهاب إلى الفندق.

قبل خلوده إلى النوم، فكر مليا: ماذا لو مِتُّ في هذا السفر؟ من سيحكي قصتي ويبرر رحلتي ومماتي؟ من سيذكرني في قبري إن كان سيكون لي قبر، ويترحم عليَّ؟

شقاوة تساؤل أخرى أذهبت تخدير الكحول ونبهت الذهن الذي أصبح مستيقظا من جديد، مفكرا في صعوبة الآتي.

لا يمكن للمرء أن يصف نعش الموت إذا لم يعش الظاهرة ويجربها. ولكن كيف يستطيع ذلك وهو يكون قد مات؟ هل يعود للحياة من جديد؟ داخل ظلمة حالكة ورائحة خشب بارد، مُلُوحَة مختلطة بحموضة تحبس الأنفاس. فعلا كانت الأنفاس محتبسة. لا يعلم في حكيه الذي يتقن تفاصيله، ما سيجعله الأول، هل الأنفاس أم الوعي؟

ضغط تنفس وخروج رغوة من الحلق إلى خارج الفم، واهتزاز جسد وتسارع خفقان قلب ازدادت معه الحاجة للتنفس الذي خلا منه صدره، ومع حالة الخوف التي وجد فيها نفسه داخل حلكة أو جحيم هو، شعر به، مع رضخ النعش الخشبي: ـ الصندوق اللعين فوق الأرض.

أن تكون عالما، واعيا ومدركا بأنك ذاهب عمليا إلى قبر، كيف يكون شعورك؟ كيف يكون شعورك وأنت ترى وضع مشنقة حول عنقك، وهم منفذون لأمر إعدامك؟

كلما عاود حكي التجربة الرهيبة، وضع نفس التساؤلات، بل زاد من تعميقها وأضاف إليها الجديد. كان عزيز شريكَه الذهني والفكري في تطوير حكاية هجرته، خصوصا حينما تختلط بين صديقين السخرية مع الشفقة النفسية والوجدانية، مع الحزن والخوف من خطورة المغامرة ووشك فقدان الروح والحياة، وفقدان صديق العمر الذي تعانقت مراحل حياته ملتفة مع مراحل صديقه، حتى كانا مثل شجرتين ملتقيتين بأغصانهما وجذوعهما وإشراقاتهما.

كيف يكون شعورك وأنت ذاهب من مرحلة قد مِتَّ فيها إلى مرحلة إعدام. هل هناك إعدام بعد الموت؟ أي تنكيل هذا يمكن أن يعيشه المرء؟ أ لهذا حُرم التنكيل بالجثث؟

ـ في الحقيقة، كان عليهم أن يجعلوك وجبة لسمك البحر. خصوصا وأنك ببدانتك اَبّا حميد سَتَقِيهم من البحث عن قوت خارج مضيق جبل طارق، ولن ينظر هذا السمك لجسد نحيف مثل جسد عزيز المسكين. يعلق ساخرا عزيز، وتختلط دموع الضحك حتى رؤية النواجذ مع الترويح عن النفس التي لا زالت آثار الهلع تسكنها في بعض منامات وكوابيس عاشها حميد.

ـ والحمد لله أنك مِتَّ ثم عشت. المهم أنهم أشفقوا على حالك وساعدوك على الاستقرار بالديار الإسبانية والحصول على أوراق الإقامة. كأنهم هم الذين كانوا سببا في غرق قارب موتك. هاهاها...

ـ أنت حي وميت، ذاك الذي لا يموت. كيف يعقل أن يذهب موتا وغرقا إحدى عشر فردا وتعيش أنت وحدك؟ عندك سبع أرواح. العجب هذا! في الحقيقة يلزمك فيلم سينمائي، تكون بطله.

ـ أنت آ سيدي اذهب وكن بطلا لهذا الفيلم ديال الغرق. الله يأخذ فيك الحق. ما تمرض ما تموت. دائما عيناك خارجتان جاحظتان للدنيا، تلتقطها كاملة. هكذا يفرغ حميد شحناته النفسية مع صديقه، سواء عبر الهاتف أو خلال لقاءاتهما التي جاءت في مناسبات بعد الحادثة.

ـ طيب، ها أنت رجعت إسبانيا بالأوراق، تشتغل في أوربا، تمشي وتجيء إلى بلادك، بسيارة وبركة نقود... ما بْحالك أحد. سْعداتك آ سيدي...

ـ الدنيا دائما همّ ومشاكل. راحة البال التي كنت فيها قبل السفر والقناعة التي كنت أعيش فيها أحسن من فتنة الحال الآن. الآن تفكر فيما ضاع منك في الماضي ولا يمكنك أن تعوضه. وما تحصل عليه الآن شيء آخر غير كاف، رغم النقود ورغم أن الزواج تيسر وكان مرغوبا فيه. كلما فكرت في تجربتي الأولى مع سمية التي رفض أبوها أن يزوجني فيها ابنته التي كنت أحبها،

وكلما فكرت في سعاد التي كانت خائفة من رجل غريب عن ثقافتها وبيئتها، أشعر أن جزءا مني قد ضاع مع التجربتين.

حميد آخر يعيش الآن. يشغل عقله أكثر من أي وقت مضى. بعض الأحيان لا أنام الليل بأكمله. آلة العقل تشتغل بتركيز وسرعة كبيرتين، تشعر معهما بضغط دموي ونبضات حادة بعض الأحيان. فيما مضى كنت هانئا، الآن أدخن علبة كاملة من السجائر وثلاثة أكواب من القهوة. كل مرة يحتاج هذا ال (حميد) إلى غسل دماغ بأنواع كحول مختلفة. هذا هو حميد الجديد. الأمواج التي واجهتها في معانقة الموت والنجاة منه، تقابلها أمواج السجائر والنبيذ. المرء يحتاج الى أشكال غيبوبة متكررة حتى يتهيأ للغيبوبة الكبيرة خصوصا وأنني عشتها، وأعلم هولها وفزعها. كوابيسها ما تزال حاضرة، وملاقاتها أعلم كيف تكون. كَمَن خاض حروبا ويدري وقعها وجحيمها. أي سفر هذا الذي حققت به أحلامي؟ أي جنة فيه؟ لا أوربا تُحققها ولا مولاي إبراهيم يَشفع لك بطقوس أصحاب الحال فيه. أن تهنأ وتهدأ مما أنت فيه هذا ما أبحث عنه بالتحديد. ولكن، لابد لي أن أسافر من جديد وأعبر هذا البحر اللعين أخي عزيز. إلى اللقاء في عطلة جديدة.

"من لدنه"

"من لدنه"

أو الكاتب الذي امتلكته شخصياته

جلس السارد في خلوة من أمره. رأى شيئا غريبا، تمثل في كون الحاكي[6] يريد تحقيق ذاته وكينونته أمام السامع. لماذا اختار الحاكي السارد لكي يحكي له؟ لقد حقق بعضا من الخلود في جعل جزء من حياته ومخياله قطعة أو تحفة متلقاة من الطرف الآخر، وليس أي آخر. ماذا يريد منه؟ طبعا لا ينتظر جوابا. ربما لن يجده. الأمر الذي جعل السارد إلى يدفع بالحكاية إلى الأمام. لن تبقى ساكنة وثابتة في التاريخ وفي المحكيات، خصوصا في ذاكرة السارد. يعلم أن الحكاية أصبحت مثل دينامو فاعل في ذهنه وتفكيره. لن يتحكم فيها حينما يتحقق تأثيرها في سلوكه وحياته.

ما العمل؟ **لم يكن سؤالا منتظرا لجواب. كان الجواب فعلا عمليا. ذكره بالعلم اللدني المرتبط بالتوجيه السماوي. سيصبح لدُنِيا مرتبطا بكلمة (من عنده). دفع بالمحكي**

[6] تتداخل المفاهيم والمعاني معها، ويحتاج كل مصطلح إلى تحديد إطاره ونوعية توظيفه. سيعني الحاكي هنا ذلك المصدر الأول الشفهي أو صاحب الحكاية المروية التي تلقاها السارد كاتب الرواية أو المتن الحكائي. يترجم ذلك التفاعل الذي يتم بين مرسل ومرسل إليه. فالكاتب يتلقى مرويات من أشخاص ومراجع ووقائع، ويحوّلها إلى متن سردي. قد يظن بأه يتحكم في الموضوع والواقع بقيامه بفعل الكتابة، لكنه ينسى بأنه يتورّط شخصيا ونفسيا ووعيا وسلوكا فيما يتلقاه. هكذا يصبح موَجَّها بإدراك أو بدونه، بشكل واضح أو خفي، بالمتن والرسالة التي تلقها. تؤثر في حياته واختياراته كما هو مشار إليه في هذا المقال المرتبط بارتسامات متسنتجة بعد الانتهاء من متن رواية 'السفر الحلم رحلة إلى'.

لتوجيه الخطو. يعيش السارد تجربة الحاكي. سيصنع قدرياته الخاصة متماهيا مع الرواية. نستحضر هنا جانبا من التحليل النفسي والتأثير اللاشعوري في سلوك الفرد. كيف تعمل البيئة والمحيط وعناصرهما في صناعة وعي وسلوك الواحد منا. أقلُّه، كيف تتغيَّر طريقة ضحك الفرد لمجرد تفاعله مع ضحكات الآخرين. وهنا لا بد من ابتسامة مستحضرة طبعا.

سيقرر **السفر، واختيار المدن مثل مراكش، والفندق، وحضور الفتاة. سيقرر السفر إلى أوربا هو الآخر. ولكن، أي حياة هي سيكون سعيدا فيها إن لم تكن خاصتَه برغبته وذاتيته؟ ها هو علمه الذي تلقاه وصاغه قد أصبح عملا (من عنده)، أو "من لدنه"، كأنه منزل من السماوات. لكن، أين هي ذاته وشعوره بسعادتها. مجرد صانع حكايات ومتتبع لأحوال الآخرين. وهناك فرق في الاستعمال والدلالة الثقافية للعبارتين: من عنده، ومن لدنه. الأولى مستعملة اجتماعيا وتداوليا، وقد تتجاوز الإضافة لتدل على استفادة مجانية شخصية من الآخرين. أما الثانية فتحمل دلالات دينية وروحانية مرتبطة بالإلهام والوحي. ونستحضر مع الأخيرة قصة سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام، وكيف كان العلم اللدني موَجِّها لسلوك الخضر الغريب عن موسى وعن كافة الأناس العاديين في التفكير واستعمال العقل.**

لكننا **هنا سنستعملها كعبارة مرتبطة بالتفاعل الفكري والتناص والعلاقات لاتي يمكن أن تنمو وتحقق بين الأفكار وأشكال الكتابة عموما والخطابة والتعبير. كيف سيكون اللدن هو المادة الخام التي تصنع المفكر والعبقري والناقد والباحث كما المبدع (ة). هو انتقال من استعمال غيبي إلى استعمال شبه وضعي، لكنه فوق إدراكي مباشر.**

وأعود **للقصة ـ الحكاية: دق قلبه بنبض قوي. انتبه لخطر تحويل سرده إلى منافس للروايات المقدسة. آمن ويؤمن بأن لا اختراق للغيب إلا ما كتبه القدر. استثمر القلم. جعله ذا هيبة وسلطة وقدرة خارقة للعادة. كم من مرة يستغرب مما كتب. قد تمضي مدة، وحين إعادة القراءة يُسائل نفسه: هل فعلا أنا من كتبت ما كتبت؟ يصبح غريبا عن أفكاره التي عبر عنها وبها. ويقدر:**

"هناك دواخل تسكننا ونحن ضيوف عندها"

قد **يجد خيوطا لهذه الأفكار، معقلنة في مصطلحات الباحثين المعاصرين، في الحديث عن التناص، عن التفاعل النصي، عن الميتا نص، والميتا حكي، والميتا حكي – نص... سيتتبع الخيط الخفي الذي يشكل سحرا منفلتا عن الحواس. سيكون هناك تأرجح بين الشفهي المسموع في ظرف زمكاني، ونفسي اجتماعي، وبين مفكَّر فيه ومشتَغل عليه ذهنيا، وبين مسرود كتابة إبداعية، ومع التلقي التفاعلي من طرف المباشرين وغير المباشرين في العلاقة والتأثير والتأثر.**

(من عنده): **يعلم أنه استعار شكل التعبير والتوظيف لعبارة ما من طريقة ميلان كونديرا الذي يصنع لغته وينتجها ويوزعها للاستهلاك وللتلقي عند قرائه[7]. كونديرا الذي يعلم أن القارئ الغربي متعطش للجديد الذي يغذي روحه ووجدانه. قارئ التهمته مادية الحضارة الغربية وتصنيعها لكل شيء، حتى إنه كإنسان أشعل نيران الأحقاد والحروب بسبب النزعات القومية الضيقة. وهذا هو الأخطر. سيكون هذا الإنسان مكسرا في رواياته للثوابت، داعيا إلى قيم يرتاح لها خارجة عن المألوف.**

تضايقه **السارد عبارة (من عندهم). يعتبرها شعبوية في التوظيف والدلالة. ليست هي مقصودُه طبعا. استحضرها هنا لكي يزيحها. وهذا ما قام به. انتقل إلى حكيه الخاص: "من لدنه". الآن صفت العبارة.**

ما انتقلت **إليه حياته كان حضورا لأشباح يسخرون من خطواته واختياراته. أصبحت الشخصيات التي صنعها حكيه هي المتحكمة بذوقها ورغباتها. فقدَ قراره واختياره. الألوان ألوانها في اللباس، والأطعمة بذوقها في الأكل والشراب. حتى العلاقات الغرامية، كانت بالصورة التي صُنِعت بها. أي سعادة هذه التي تجعلك مزدوج الشخصية ربما، في شيزوفرنيا غريبة؟ هل نقول إنه أصبح مريضا نفسيا؟**

[7] يستعمل مثلا مصطلح الكيتش Kitsch والذي يشير إلى الجمال المبتذل.

كان شبح قلمه ورقنه وطيف كتابته، يسبقانه إلى الاشتغال وترجمة الواقع إلى محكي، وتربص الآخرين في جزئيات سلوكهم مع الإسراع إلى تدوينها وتوليفها في قصصه وخيالاته.

من الصعب عليه أن يكون محاورا لذاته، ومتصارعا معها، خالقا حروبا وهمية داخلها. ليس لشيء سوى لكونه تلبّست به الشخصيات التي كتب عنها فأصبحت ذاته مملكة أشباح لا تقتصر على يقظته في حضورها، بل كذلك في أحلامه وكوابيسه. تمنى لو تخلّص من كل هذا، لكن الرقن والطبع للحكاية سبق التمني في الوجود والتحقق.

في لحظة معينة، لم يستطع السارد الاستمرار في المحاكاة والتماهي. أراد استرجاع استقلاليته وحريته، رغم أنه هو الكاتب والمنتج للنص. جعل مسافة بين مسار الرواية ومسار خياراته الحياتية. تنفّس الصعداء. خرج من لعبة التداخل بين محكيّه الشخصي ومحكيِّ الرواية. حقّق ساديته في التحكم في حياة ومناخ عيشها. لكن شبح الحكي ما يزال يسكنه، رغم أنه جعله خارجه وداخل النص المكتوب والمرقون. تذكر نفس الوضع الذي عاشه وهو يكتب مقالا بعنوان: الكاتب الذي تسكنه شخصياته. أراد ختم هذه الرحلة بإعادة نشره هنا. أخيرا، قد يتنفس الصعداء!

الكاتب الذي تسكنه شخصياته

لن تكون جديدة هذه الحكاية. كم من شريط سينمائي ترجم هذه العلاقة بين الكاتب وشخصياته. أستحضر بشكل جمالي ودرامي ذلك التفاعل والاختراق الذي يتم بين عالمين، الأول واقعي والثاني خيالي افتراضي. حتى إننا لن نعود في حديثٍ عن أيهما الحقيقي. بالنسبة للمتلقي، والذي قد يكون قارئا أو مشاهدا أو مستمعا، فالعملية أكيد فيها عجائبية واستغراب مرافق لها. لكنها كعملية بالنسبة للكاتب فقد تكون العكس.

أي إنها قد تكون حقيقة معيشة. واقعا دراميا حياتيا. قد يجلب النعمة مثلما قد يكون نقمة على صاحبه. فهل يمكننا أن نسأل الكاتب عن شعوره وترجمته لتجربته؟

كيف سيتحدث **عنها؟ وهل ستختلف بين هذا وذاك؟**

هناك تقاطع كبير بين حالات الهلوسة والتداخل بين الشخصيات في نفسية الفرد الواحد، مع الحالات التي نرصدها في تجربة بعض الكتاب حين تمتلكهم أرواح شخصيات. سيعيش المريض نفسانيا تفاعلات أرواح وأصوات ومشاعر موزعة وملتقية داخل ذاته راكمها التفاعل مع المحيط والبيئة وأفراد المجتمع الكلي وليس الجزئي المحلي أو الأسري. سيكون ضحية لتناقضات وتعثرات واختلالات وعدم توازن في الفصل بين الذاتي السوي والزعزعة أو الصدمة التي تفجر اللا توازن داخله وفي سلوكه العام.

لكن هذا الكاتب **أو ذاك، من أين ستأتيه هذه الحالات؟ ربما يجب علينا أن نسأله عن تجاربه وعلاقاته مع شخصياته التي يكتب عنها وينكتب بها. ربما سأسأل ذاتي أولا، وعن سر اختيارها للكتابة في هذا الموضوع. كيف ارتقت الفكرة ومن أين أتت. كيف عشتها وأعيشها. لكنني أريد أن أجعلها ملاحظات موضوعية وليست مجرد تأملات ذاتية خاصة بتجربة فردية. لهذا سنجعل الملاحظات ومعها الاستنتاجات، ثم نترك للمتلقي حق التفاعل بين بين. له أن يتجاور معها ويناقشها حتى ينفتح الفكر على ما هو أفضل من هذه التدوينات النسبية. هو اجتهاد أولي، ولبنة لأجل بناء ما هو أفضل فكرة وموضوعية وملاحظات مستنتجة.**

في تجربتي الشخصية، **كانت رياضة عقلية وحياتية وما تزال. عمليات تأمل للآخر ومحاولات رصد سلوكه وتفسيره وربطه مع السياق والموضوع. ما تراكم من تجاربي وثقافتي ومعرفتي، أحاول أن أجعله مساعدا على الفهم والاستقراء والاستنتاج من فعل وسلوك الآخر. هكذا أجدني ذلك المحقق، وذلك المتجسس، وذلك المتابع لتجربة مختبرية. قد أتعمّد اختلاق السبب أو الإثارة حتى أترقب نتيجة ما.**

كمن يحاول أن يصيغ القدر ويتابع قدريات نتائجه وآثاره. قد أدخل في تجربة الآخر وأحاكيها وأحاول أن أستجمع الحكي من التجربة بأحاسيسها ومشاعرها وخلاصاتها، بوصفها ومعاناتها أو ممتعِها، بكل ما يمكنني أن أستفيده منها، فيكون القلم أو الرقن ترجمة لكل هذا، وتكون حياتي اليومية في لحظات قد تطول، تقمّصا للشخصيات المفترضة التي تشغلني خلال مرحلة الكتابة عنها. أتوجه بميكانزماتها الجزئية والكلية. قد أجرّب فضاءاتها وسلوكاتها حتى أصل إلى مكنون مفيد في الكتابة وموحٍ بالاستمرار فيها.

هكذا أعيش **الغرائبية ذاتيا، حيث تكون حياتي هي حياة الآخرين، وتجربتي هي غوص في تجربتهم. وقد لا أكونني لأنني انخرطت في تجربة مختبرية واعية أردتها للشخصية حتى تنكتب بما أتفاعل معه. وربما من زاوية ما، ومنطلق ما، أمُرّ بمراحل ثلاث على الأقل:**

ـ مرحلة الذات ـ الأنا وتجاربها ومشاعرها ومواقفها كما عُقدها ونواقصها التي تسقطها على عملية الكتابة.

ـ مرحلة الشخصية المنسوجة والمتخيلة والتي هي هذا الآخر المصنوع افتراضيا وذهنيا، والتي تتشكل من عنصرين بارزين هما: الخيالي التخييلي والواقعي، فتنصهر داخل الحروف المركبة كائنا أدبيا وثقافيا جديدا بامتياز. ويكون التفاعل بين اثنين نتاجه ثالث آخر جديد هو نحن معا.

ـ مرحلة الحياة الجديدة التي تنعكس على نفسية الكاتب، والتي تختبره في محطات معيشية جديدة، قد يعي وقعها وقد يكون ضحية ما غرسه كجينات ثقافية يبرمج معها سلوكات النفسية والشخصية والترجمة الحياتية.

ومع *هذه المرحلة الثالثة* يأتي هذا التناول الذي يجعل الكاتب مستغرَبًا عجائبيا. قد يكونه الفنان الرسام أو الشاعر الملهَم أو غيرهما كذلك. هي تجربة الإبداع عموما. لكن، الأخطر في كل هذا هو أن يفقد الكاتب التحكم في ذاته وتوازناتها ويصبح في قدرية شخصياته وعقدها وانفلاتاتها. حيث يصبح الصياد فريسة لصيد آخر افتراضي لا إرادي لكنه متفاعل داخل ذات صاحبه. فهل هناك حلقات مفقودة في تحديد ومعاينة العلاقة بين الكاتب وشخصياته؟ هل هي لعنة الكتابة في وضعيات ما؟ ولماذا لا نتكلم عن أجوائها ومملكاتها السعيدة التي يعيش معها وبفضلها؟

أسئلة تجيب **عن نفسها وفي سياقها. لكنها أسئلة تدعونا إلى مزيد تأمل وتفحّص للظاهرة. والظاهرة ندركها مع المتلقي كذلك. هذا الذي يتفاعل منذ صغره مع شخصيات محكية أو ممثَّلة في مسرحية أو مشاهدة في مسلسل أو شريط تلفزيوني أو سينمائي، أو مقروءة في قصة أو رواية... هي عملية التربية التي تعتمد على الثقافة المبدعة وعلى الفن. وهي العملية التي يؤمن الجل بإيجابياتها وضرورتها. لكن النسبية والانفلات يكونان مع ما يقع خارج المرغوب تربيته عليه وتأطيره داخله كسلوك مرغوب. وهنا يتقاسم المبدع والمتلقي لعنة الإبداع الذي يكون وقعه سَلبيا على صاحبه، أو لنقل إنه يكون عجائبيا وغرائبيا كتجربة يريد البعض خوضها كمن يعشق سيجارته الأولى تحديا ونشوة ورغبة وسفرا مع دخانها الأبيض المنفلت في اللا فضاء واللا أفق.**

هذه وتلك **هلوسات متأمَّلة، تجارب معيشة، عالم كتابة مجنون يخلق عوالم غريبة. فكيف يستطيع الكاتب أن يتعايش مع شخصيات عديدة امتلكت كيانه، ولم ترِد مفارقته ولا التخلص من تفكيره وشعوره؟ كل مرة تطفو بأصواتها لكي تزاحم اختياره وقراره وذوقه ومساره.**

...

حسن إمامي

من مواليد 1963 بمدينة مولاي إدريس زرهون بإقليم مكناس بدولة المغرب.

صدر له سنة 2014 عمل روائي بعنوان (*قرية ابن السيد*).

مجموعة قصصية بعنوان (مدائن ليلات). رواية (صرخة المصابيح) أبريل 2016. رواية (شجرات وخرائط) أكتوبر 2016. رواية (أقفاص) أكتوبر 2016.

- رواية (زهرة النرجس) + رواية (ديلار.. شرفة الريح). نونبر 2017.سنة 2019: رواية (بحيرة العشق اللازوردي)،عن مكتبة السلام الجديدة الدارالبيضاء.

- عمل روائي ملحمي في أجزاء يتناول تاريخ مدينة مولاي إدريس زرهون - طُبِعت منه رواية (باب القصبة).

- **رواية الساعاتي إصدار دجنبر 2020.**
- **منشورات رقمية بموقعي نور وفولا بوك:**
- ***رواية أم الغيث – *رواية سيدي امحمد بن قاسم –**
- **رواية أوراق التوت المتساقطة – رواية فيلا ماري روز - *قصص أطفال...**
- **العمل الملحمي (سيرة مدينة ونسيج حياة).**
- **رواية هذا الدفين - رواية تاريخية دون فيليبي دي أفريكا 2026- رواية إسلام مارسيل.**
- **إصدارات جماعية مشتركة في الشعر والقصة والدراسات النقدية.**

- كاتب مقالات تحليلية في مجال الثقافة والإعلام والفكر، نُشِر جلها في جرائد مغربية وفي مواقع إلكترونية متعددة.

- حضور في المنتديات الثقافية والأدبية المتنوعة وكذا في بعض اللقاءات والمهرجانات المغربية في مجال الشعر والقصة.

- يشتغل الآن في حقل التعليم والتدريس بثانوية المسيرة التأهيلية بمدينة مكناس.

في غمار تجربة الكتابة والإخراج المسرحي والسينمائي خصوصا مع فئة التلامذة والشباب.